BOBST LIBRARY
3 1142 03166 0163

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

6622
X3/55

Karam, Karam Milḥim.

كرم ملحم كرم

Ashbāḥ al-qaryah

أشباح القرية

رواية

طبعة ثانية

AZROU · S.M.NRIE · ATT · REGIS · DE · TIOUMLILINE

مكتبة صادر
بيروت

MAR 21 1985

PJ
7842
.A68
A9
1951
c.1

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة المناهل : ٦٣ – ١٩٥١

اقاصيص هذا الكتاب:

١ – جبور في بيروت

٢ – عاد رزوق من اميركا

٣ – لا تنتحبي !

٤ – فريد ابن ام فريد

هذه هي القرية اللبنانية، تحت عينيك، منشورة في هذه الصفحات الصادقة اللون، المثبتة امامك كأنها رسوم لا كلمات وسطور. فليس لك الا ان تجيل فيها ناظريك لتتعرّف باربع اقاصيص الى ميول القرويين، واخلاقهم، وغرائزهم، وما يغذون في صدورهم من آمال

والقرية على جمودها طافحة بالحياة الحقّ، الخالية من كل زخرف وطلاء. فليست بحاجة الى نزع المساحيق من وجهها لتعرفها وهي صورة صراح لا تصنّع فيها ولا تحذلق. لا مزيّن يجمّلها، ولا مقلّم يحمل بيده المبرد والمقص والصباغ ليجلو اظفارها برّاقة كالدراري، ناتئة كالانياب. فكل ما في القرية بكرٌ بتول، على ان هذا البكر البتول لا يسلم من عدوى الفساد اذا هجر القرية وخالق الاشرار، وكلما اعتصم بقريته فهو في منعة من الالتواء. ولكن المطامع الوثابة في الصدر لا تبقي على من تحتدم فيه، بل تخرج به عن نطاقه لتسعده او تشقيه.

وكل ما تنتفض به هذه الاقاصيص الاربع من حقيقة ناصعة انتضيته من احشاء القرية، من تلك الجبال العذارى التي تنشقتُ فيها نفحات الوجود. فكنت بها رساماً فاض قلمه بما شهدت عيناه. واني لادفعها الى من شاطرتني انقال الجهاد ولمّا تزل. الى من ظاهرتني على مغالبة كيد الايام. الى ام ابنائي البارّة دليل وفاء واكبار!

كرم ملحم كرم

جبور في بيروت

كانوا خمسة عشر نفساً على المصطبة بما فيهم الاطفال . وما اضاؤوا سراجاً. فالقمر في سمائه متدفق النور يلقي عليهم اشعته بسخاء. وجثموا جميعاً على بلاس متعدد العيون ، شهر الفناء عليه حرباً فرماه بالثلمات تجتاح كبده وزواياه. ونام اثنان من الحفدة على ركبتي جدتهما العجوز . واقام الآخر بجانب جده يصغي اليه في احاديثه عن الحقل والناطور واحوال القرية في الزمن القديم . وتفتحت الآذان والجد يتكلم . فهو يروي عن الماضي ما لا يجيد سواه من رجال الامس واليوم . وانه ليبدع الوصف والاسهاب ، ويحفظ اسماء اسلافه ومعاصريه . ويطلق عليهم كناهم والقابهم . هذا ابو نصيف ، وذاك المشمّر ، وذلك ابو حشيش !

واطربت أحاديثه سامعيه . فكلهم شاقه ان يعرف اخبار العهد الخالي . وكانوا يصغون ويدهشون ويضحكون . والجد الشيخ يعمد حيناً بعد حين الى ضبوة التبغ فيعقد منها لفافة يدخنها ولفافة يشكها وراء اذنه للساعة الحرجة . وتفيض كلماته من شفتيه النحاسيتين مبرقعة بدخان اللفافة . ويقول من يصغون اليه : هذا حديث شهيّ !

وسجيع عامر اشتهر بحكاياته واقاصيصه في تلك القرية الكئيبة ، المنبطحة على كتف المختارة في صميم الشوف وكأنها الشعار

العسكري على كتف ضابط عالي المرتبة . فلا يروي طرفة الا ويتناقلها عنه ابناء بلدته ويتفننون في سردها ويتبسطون فيها. وتزخر مجالسه بالرجال والفتيان والنساء وكلهم يرجو ان يتمتع بفاكهة الشيخ سجيع . وكانوا يطلقون عليه لقب «شيخ» لا لكونه جاوز السبعين ، ولا لانحداره من فخذ اسرة تتسلح بهذا اللقب كما يتسلح العاشق بزهرة من الورد يغرسها في صدر معطفه ، بل لكونه تولى في ماضيه جباية الضرائب في القرية وكان فيها شيخ صلح . وحمل هذا اللقب مدى عمره لا ينفصل احد منهما عن اخيه .

وفي تلك الليلة المقمرة، فيما يروي الشيخ سجيع حكاياته على مصطبة الطين، واولاده وحفدته حوله وبينهم فئة من الجيران ، علت الاهازيج في بيت سليمان الحاج في رأس الضيعة. وأطلق الرصاص في الجو اعلاناً ببشرى سارّة. فارهف الشيخ سجيع اذنيه لالتقاط الأصوات المتعالية بجلبة من اعماق الليل ، والتفت الى جلسائه يقول : اي فرحة يهتز لها بيت الحاج ؟

ومرت بجانب المصطبة امرأة تتلثم بمنديل من الشاش الابيض فقال لها الشيخ سجيع : ما هذه الاهازيج في بيت سليمان الحاج يا حرمة ؟

فاجابت وهي تتابع طريقها بصوت يتوهج فيه الطرب : عاد ابن سليمان الحاج من بيروت ، العقبى لسائر الغائبين !

فقال الشيخ سجيع بارتياح : هل عاد شامل ؟

– عاد يحمل خمسة ارطال من الذهب !

فالتفت الشيخ سجيع الى من حوله قائلاً : لننهض الى تهنئة والديه .هذا شاب عرف كيف يعيش . برح القرية الى المختارة يخدم في دور آل جنبلاط فما اعجبته الخدمة ، فرحل الى بيروت يتاجر بالزيت والزيتون، فتكردست في جيوبه الارباح . وجاء الناس يستدينون منه المال فادانهم المئة بفائدة خمسة وعشرين . وما انقضت عليه بضع سنوات حتى عاد الينا يحمل ثروة لا تقل عن الف ومئتي دينار . وكان ابوه يجهد نفسه وبدنه في اليوم الكامل ليربح خمسة قروش . فيذيب نهاره في حراثة الارض ، وبناء جدران الحقول المتهدمة، وحمل اكياس الزيتون الى المعصرة، واكداس الحطب من الكروم ، وما توافر له بناء جدار لنفسه وشراء ذراع من الارض . ما غلبك الا من قال : ربي اعطاني!

ونهض الشيخ سجيع يلحق بـه حفدته واولاده وكل من جالسه في هذه الليلة على المصطبة . وجميع ابناء القرية اندفعوا على الفور الى منزل سليمان الحاج يهنئون وينعمون بمظاهر الفرح المالئ الوجوه والقلوب . فما اكتفى سليمان الحاج بالاهازيج تنثرها الافواه ، وبالاطلاقات تجود بها اشداق الغدّارات، بل عمد الى الدفّ ينقره . ودعا شبان القرية الى حلقات « الدبكة » . وفتح قارورة العسل ، وخابية العرق . وذبح الخروف المسمّن. واضاء اربعة مصابيح ، اثنين في العليّة ، ومصباحاً على المصطبة،

ومصباحاً في بيت المؤونة وقد اخذت النساء في اعداد المآدب للمهنئين

وجلس شامـــل بين المقبلين لتهنئته بثوبه الفرنجي الحسن الكيّ ، وربطة رقبته الحمراء ، وطربوشه المقشّش المعوّج على مفرق مصقول الشعر . وتدلى من جيب معطفه منديل من الحرير الازرق تعبق منه رائحة العطر . وقبض بيمناه على عصا ذهبية العقفة . وألقى رجلاً الى رجل واسند ظهره الى المقعد المحبوس عليه ، المجلل بالوسائد. وتحدث باعتداد المزهوّ عن فخامة بيروت وعن ارباب العز فيها وان هو الا منهم . وعلا في تشامخه حتى ساد واستطال . فمال اليه ابناء القرية باسماعهم واذهانهم وقد ملكهم الدهش والذهول . وتساءلوا: أتكون بيروت اشبه بالمعاد؟

وسال لعابهـــم شوقاً الى المدينة المشيدة بالذهب ، القائمة الدعائم عـلى مناجم من الفضة . وادرك في تلك الليلة الشيخ سجيع عامر ان بلاغة شامل بن سليمان الحاج كسفت بيانه . فكل ما في جرابه المنتفخ باحاديث الضيعة لا يدفع القرويين الى الاصغاء اليه بمثل هذا السكوت المستحوذ عليهم فيما يحدثهم شامل عن عجائب بيروت ، فقـد فتحوا افواههم تعجباً مما يعون ، واحسوا بانهم بعيدون عن العالم في هاتيك القمم النائيـة ، المقفرة ، كأنها لولا الحضرة والماء مجاهل الفلوات .

قال شامل وما انفك يتمادى في عجب الديك الازهر : هي افضل من الف اميركا لمن يعرف فيها كيف يعيش !

فاسكر القوم باحاديثه . ولقد انتشوا بخمرة لسانه قبل ان ينتشوا بالسلافة الراقدة في خابية ابيه . وانصرفوا على شده وهم يحلمون بهذه المدينة الملأى بالسحر ، الزاخرة بالثروة ، الطافحة بالحسان وقد تواثبن في صدرها واطرافها ، وتوسدن زواياها ، المنطلقة في طريق الحضارة كقذيفة المدفع . وحنّت اليها نفوسهم وافئدتهم وقد باتوا لفرط ما سمعوا عنها كالمخمورين ، لا طاقة لهم على الكلام والحراك . وما زالوا يتعجبون من ابن سليمان الحاج كيف عاد من بيروت ، لا من اميركا ، بالف ومئتي اصفر رنان ، على حين هاجر سواه الى اميركا ، وقضى فيها عشرات السنين ، ولم يجمع ما يقوى به على العودة الى الوطن .

وخرس الشيخ سجيع مع فضفاض بيانه . فالبلبل اسكت الشحرور . وتهادى الى منزله وحديث شامل الحاج يرهقه . وسار وراءه اولاده وحفدته وهم سكوت . فراعهم ما وعوا واضحوا لا يبصرون في طريقهم الى المنزل غير تلك الآيات المكتوبة في سفر بيروت . وامسك جبور ، كبير الحفدة ، بيد جده الكليلة القاسية قائلاً له بغيظ مكظوم : جدي !

فانتفض الشيخ سجيع كأن عقرباً لسبته وخرجت به عن اطرافه الثقيل وقد احس بأنه يحمل على عاتقه جبال الشوف . ونظر الى حفيده يقول له بصوت متهدج عرته البحّة : ما بك يا جبور ؟

فاجاب الفتى بلهجة عزوم : بي شوق الى العمل في بيروت !

فلم يجب الشيخ سجيع . مع ان من عادته الكلام والافاضة ابداً بالموعظة . ومضى في طريقه كأنه لم يسمع . ولحق به حفيده البكر ينتظر الجواب ولا جواب . واعتصم الشيخ سجيع قبل الاوان بفراشه في تلك الليلة الغاصة بحكايات بيروت ،بحكايات اشبه باقاصيص الابالسة والعفاريت كأن للجن موئلاً في المدينة الرحراح ، المرتمية على الشاطىء كالتنين التعب من اعماق اللجج فيها الى اليابسة يستريح . على ان الشيخ سجيعاً لم ينم . فتوالت عليه افكار ممضة خادشة، كأن ما سمع عن بيروت ازعجه. ومما هاله ان يطلب منه حفيده البكر العمل فيها . وماذا يعمل فيها جبور ؟ ... اذا كتب لابن سليمان الحاج التوفيق في المدينة المختنقة بالخلق ، وقد اعتلج فيها الخير والشر، فهل يكتب بعض هذا التوفيق لحفيد الشيخ سجيع ؟

وحفيده في الثامنة عشرة . ما تزال الغشاوة مسدولة على عينيه وليس يحمل في صدره من العلم والتجربة ما يساعده على الكفاح في مدينة مطماع ، سحيقة المدى، ساخرة بالضعيف . فالغلبة فيها للقوي المحظوظ . اما الواهي ، العاثر الحظ ، فانه ليتحطم كالخزف ويسحقه الزمن الغدور .

قال الشيخ سجيع وما يجهل ان التوفيق عطاء تهبه يدٌ خفية لقوم لا يعلون سواهم شرفاً، ولا يبزّونهم استحقاقاً، ولكنه دلال القدر : ليس لجبور ان يعيش في بيروت ويربح قوته . فالقرية

ارحم له من مدينة يسرح فيها كالغريب في صقع مهجور !

وجبور يرعى في الضيعة ابقار ابيه ويحرث الحقول . ويسرع الى غابة الملّول والسنديان يحمل منها الحطب والبلاّن الى الموقد والتنور . ويحصد في ايام الحصاد . ويحرس اكداس القمح على البيدر . ويجمع التين الناضج . ويحصر الماء بالصهريج ليسقي حقل القثاء والباذنجان . ويباطح في ساحة القرية اخوانه . ويحمل الجرن متحدياً الاقران . وينتظر بفارغ صبر يوم العيد ليرتدي ثوبه الجديد ويعرض صبايا القرية وهن يسلكن طريقهن الى العين او الى الكروم . ولقد قال فيه جده الشيخ سجيع : لا نفع لنا منه بيننا ونحن نقوم مقامه في كل ما يتولى من شؤون . غير ان بقاءه فينا ولا جدوى منه خير من انصرافه عنـــا الى ديار الغربة فيضيع فيها ويذل !

وما قضى الشيخ سجيع وحده ليله في تفكير ، بل شاطره الارق حفيده جبور . فلم ينم الحفيد كالجد . وكان يلوح له ما ازدخر شامل الحاج في بيروت من دنانير ذوات شعلة برّاقة تخطف الابصار بوهجها واغرائها . وبدا له انه سيعود بمثلها اذا اباح له جده السفر الى بلدة الوفر . ومـا استشار في الامر اباه وهو يعلم ان اباه يذعن في جميع اموره لمشيئة رب البيت الشيخ سجيع عامر . فاذا اطلقه جده الى بيروت خضع كلهم للمشيئة العليا المنزلة كأنهـا الآيات لا ترتضي تبديلاً . واذا ابى عليه الرحيل

فمن المحال ان يقوى على خطوة واحدة بعيداً عن القرية . فان رب الاسرة ، على بلوغه الشيخوخة والهرم ، عزيز مهيب في تلك القمة الشاهقة من ارض لبنان. فلا تقدم الاسرة على امر لا ينعم برضى سيدها الجليل ، العريض العمامة ، الضخم الطربوش المغربي ، المتزمل صيف شتاء بعباءة من الصوف الاسود كأن من المفروض على ذوي الوقار ألا يخرجوا ، انى بدوا ، عن الزيّ الكميل .

قال جبور : لست دون شامل الحاج مقدرة وحزماً . أيعود من بيروت بألف ومئتي دينار ذهباً واظل في الضيعة اتقلى بشمس تموز وبموقد شباط وآذار، وان سعدت في يومي حملت الى الغابة فأسي وحبلي لاعود منها بكدسة من الحطب ؟... لا ، مستقبلي في بيروت !

ولكن اذا مانع جده فما يكون ؟

سيبرح القرية في طي الخفاء فلا يشعر به الشيخ سجيع وسائر اهله الا وقد امسى في المدينة الحلوب الصائحة به : «تعال !» . فان يغضبوا عليه ساعده الزمن على نيل العفو ، وان يصفحوا عنه زادوه منة على منن. ولكن الرحيل الى بيروت ليس هفوة تقدر الغفران وقد سخا على شامل بن سليمان الحاج بالف ومئتي دينار ؟

واعتزم جبور الرحيل سواء لديه مال اهله الى تأييده في الوثبة او عاندوه . فلن يبقى في القرية يموت فيها على مهل

دون ان تتفتح عيناه على دنيا الله الواسعة ودون ان يجدّ في نفع محسوس

وفي الصباح الباكر قام الى جده يقول له بلهجة المرتقب انصافاً : لم تجبني عن التمامي العمل في بيروت يا جدي !

فنظر اليه الشيخ سجيع بعينين واسعتين مستفهمتين وقال وهو يشدّ تكة سرواله الاسود المترامي الذيل : أحقاً تتكلم يا جبور ؟

قال الفتى وما كان بالهازل وكل ما فيه يشد به الى مجنى النضار: لست بالمتواني كي امزح !

فضحك الشيخ سجيع وقال : وهب رضيت عن سفرك الى بيروت فما تقوى على العمل فيها ؟

– اتاجر بالزيت والزيتون !

– وان لم تنجح ؟

– ليس لي الا ان اعود !

– اي انك تميل الى التجربة ؟

– بلا ريب، فليس شامل الحاج افضل مني !

فقال الشيخ سجيع عامر بكلام جازم كالامر لا هوادة فيه: عندي ان تظل بيننا يا ولدي !

– أأظل بينكم ارعى الابقار، واحرث الحقل، واجمع الحطب، واحصد الزرع؟... منذ ثماني سنوات وانا اقوم بهذه الاعمال،

فماذا ربحت؟... لا ازال استجدي منك ومن ابي القرش. واذا ملت الى شراء حذاء اقلقتكما بطلبه ولا تجيباني اليه بسوى مجهود . فلا يفلت من ايديكما البدل الا وقد انتزعته منكما بكلاّبة قاطعة . واذا حاولت ان ارتدي ثوباً يستر عريي خلعتما عليّ ما اندثر لديكما من ثياب بالية . ومثل هذه الحياة تخجلني ولا تنيلني اربي . ازمعت ان اتكل على ساعدي واشتغل في بيروت !

فأعجب الجد بحماسة حفيده . انه ليبني لغده ويسعى لاكرام نفسه وما يجنح الى باطل. غير ان النصيحة وخبرة الايام تكلمتا في الشيخ سجيع فقال ببسمة المطمئن الى ما يختزن من حنكة الليالي : لا يخدعك من شامل توفيقه . هذه نعمة ما ادركها غير واحد من الف . وقبل ان تنظر الى شامل في عليائه لا بأس ان تنحني ببصرك الى الخائبين في امانيهم وما يلمّ بهم احصاء . فالحياة تزخر بالخيبة وما تسقي الظامئين الى حلاوتها غير المرّ . فلا تغترّ بما سخت به على فتى محظوظ والمحظوظون في الكون اشبه بالاعاجيب . بيروت قد تطعمك اللقمة ، ولكنها لا تنفحك بما تنهد اليه من ثراء . عدا ان مالها لها . فتعطيك باليمنى لتنزع باليسرى ما جادت به عليك. ابقَ هنا ولا تطمع في غربة جائحة !

فأصرّ جبور على الرحيل . وتراءى للجد ان الامر بالغ من نفس الفتى قرارتها ففرض على حفيده سلطانه الناهي : لا تلعب

بالنار . خُلِقت في الضيعة وستبقى فيها . ليس لمثلك ان يجاهد بمنأى عن هداته . اني امنع عنك محادثتي في رغبة لن تجديك !

وقطع عليه كل سبيل الى مطارحته الكلام. فبلع جبور ريقه وابتعد ونفسه تحدثه بالرحيل . وكتم سرّه فما أباحه لامه ولا لابيه ولا لصديق. سيرقب جُنّة الليل ويطوي على قدميه طريق الشوف ودير القمر الى بيروت وليس يملك بدل دابة تحمله الى المدينة الطافحة بالمفاتن. وسيشتغل في البدء بما يتيسر له من اعمال. وعندما تقبض يده على بعض المال يظهر في الاسواق كتاجر ذي صولة. فتتسع شؤونه ويقيم في صدر محله ثرّياً ذا خطر، ينحني له الناس وينادونه : « يا خواجه جبور ! » وهو لا يكاد يلتفت اليهم من سوى فرجة ضيقة في فلكه الدوّار. ولا يرد لهم التحية من سوى شفتين فاترتين تضنان بالنأمة . ويرتدي الثوب الفرنجي كشامل نفسه، بل سيكون اوفى بذخاً من شامل واندى يداً. ولن يمشي على قدميه بل يتصدر المركبات ذوات الخيول المطهمة. ولن يعاشر الرعاع بل يجالس كبار القوم . وربما امتنع من العودة الى الضيعة. فيظل في بيروت يخالط ذوي النباهة ويتزوج ذات رواء ونبل . ولن يحفل بالبائنة وما لديه يكفيه. اما اهله فمن المحال ان يرنو اليهم . أيرنو اليهم مع كل ما يموجون فيه من حقارة تخذله ؟... لا بأس، سينعم عليهم ببعض نظرة وليس ما يحول دون رضاه عنهم . فيدعوهم اليه بعدما يخلع عليهم

الثياب الفرنجية الغالية لئلا يخجل بهم على مرأى من عروسه واخوانه . وسيشتري في المختارة الكروم الواسعة . سيشتري بساتين آل جنبلاط كلها . ولن يتنزل الى مخاطبة جميع هؤلاء المقيمين في القرية كالكسالى ، راضين بالبؤس والخنوع ، على حين ان الثروة على قيد خطوة منهم . فليست بيروت بعيدة كل البعد عن هـــذه القرى المتناثرة كالنجوم في ثنايا قمم الشوف المتوّجة هامة لبنان الاريض

*

في ليلة مكفهرة ، ساجية ، برح جبور قريته يطوي منديله على عشرة ارغفة وقليل من الزيتون وبصلتين . فتناول الارغفة من المعجن فيما ينام من في البيت ولفّها بالمنديل وقد حشا احدها بالزيتون والبصل . وتمنطق بها ومشى في طريق المختارة وبيده عصا من الزعرور

وهو ليس بحاجة الى العصا يتوكأ عليها لولا وعورة الطريق ووحشته . فمن افعى تسد عليه السبيل ، ومن كلب احد الرعاة يفاجئه بالنباح والعض ، ومن شرير يعترض مسيره . فقد تعوّدت جبال الشوف ، الرهيبة المخارم ، ان تظلل باجنحتها عصائب السوء

ووقف جبور ازاء قصر المختارة وتنهد . أيوائمه السعد فيبني داراً كهذه الدار ؟ ... هذا قصر الشيخ بشير جنبلاط . وكم حدثه عنه جده الشيخ سجيع عامر . فروى له عن السيد

الجنبلاطي ما لا يصدق. قال له عنه انه كان دولة في قلب الدولة. جرّ الامير بشير الشهابي مياه نبع الصفاء الى بيت الدين ودير القمر فجرّ الشيخ بشير جنبلاط مياه نبع الباروك الى المختارة . بنى الشهابي قصر بيت الدين فبنى الجنبلاطي قصر المختارة المنيع . فتضايق الامير . الا ان حاجته الى الشيخ بشير ينصره على خصومه اهابت به الى السكوت . ولكن الغيرة الجامحة استفاقت ذات يوم في الشهابي ولم يقوَ على كبحها . فصارح الجنبلاطي بان البلاد لا تحتمل بشيرين، فاما الشيخ واما الامير . ووقعت الواقعة وانتهت بهزيمة سيد المختارة. ففرّ ولجأ الى عبدالله باشا والي صيداء الثاوي بقلعة عكاء . فحماه عبدالله باشا من كيد الشهابي . ولكن الحاج محمد علي، عزيز مصر، اهاب به الى القضاء على الشيخ بشير

هذا بعض ما روى الشيخ سجيع عامر لحفيده جبور عن الشيخ بشير جنبلاط، والفتى يحفظ حكايات جده كما يحفظ اسمه . فيرددها في رفاقه ويدعي بها بلوغ المستوى المنيف من الفهم والعلم . وابتسم لغده وهو يلقي آخر نظرة على القصر وقال في نفسه : ما يحول دون ان اشيد يوماً صرحاً كهذا الصرح؟

ومشى تدفعه آماله . وبلغ دير القمر والفجر على وشك ان يلوح . واشرفت عليه الشمس وهو في وادي نهر الصفا المتغلغل في خمائل الدامور . واجتاز الشواطىء الى مدينة بيروت على شديد الاعجاب بالبحر الصاخب وقد تلاطمت فيه الامواج الهادرة

لتتلاشى بمزبد الفحيح على بساط الرمال المعطاش. ولم يكن جبور قد شاهد البحر. فهي المرة الاولى يبرح فيها الشواهق ويتدحرج الى السواحل. ولقد سمع عن البحر كل عجيب رهيب. وها هوذا يراه بعينيه الاثنتين ويروعه منه مداه، وزرقته، واضطرابه. فانه ليتوائب ابداً كأنه على قلق الشجيّ

وتراءت له صحراء الشويفات الدكناء باشجار الزيتون المبتهلة، الخاشعة، كأنها في معبد طليق تناجي الله. فتخيّلها كبقعة الزيت وكلما توغل فيها انتشرت وامتدت

ولاحت بيروت لناظريه منقلقلة على الضفاف تتحفز للوثوب كأنها على وشك الارتماء في رجراج الحضمّ. وخفق لها قلبه. فهي لديه ارض المعاد. وحثّ اليها خطوه. الا انه كان يمشي ويمشي ويظل مكانه، فالمسافات تبدو له قريبة على حين تتمطى على امد طروح

ودخل بيروت وقد نهكه التعب وشعر بضيق في صدره، وبعياء في مفاصله، غير ان مرأى الجموع المزدحمة في كل صعيد شغله عن المشقة. فأبصر وجوهاً وهياكل لم يتعود رؤيتها. فمن مركبات تقودها الخيول الدهم والشهب، الى نساء يرتدين الثياب الغالية الاثمان وتملأ المساحيق وجوههن، فيتهادين في مشيتهن كأنهن ربات الدلال، الى قطر كهربائية تتحرك من تلقاء نفسها دون جياد تجرّها. فكيف تمشي باندفاع وحماسة غريبين وليس من يشدّ بها،

ولماذا لا تحوي مثلها جبال الشوف ؟

*

بدت له دنياه وهو في القرية لا تجاوز آفاقاً عاش فيها . فاذا بها لا تقف عند حد . كان يخيل اليه ان البيوت لا تختلف في معظمها عن بيته . فاذا بيته دون الكوخ حيال ما يرى . واعجب بغابات الصنوبر القائمة كالحجّاب على ابواب المدينة . وحدّق طويلاً الى رجال الشرطة بثيابهم اللمّاعة الازرار ووجوههم المقطّبة كأنها مستودع الشر ، ومسدساتهم البادية في وسطهم تهدد بالويلات . ولفتته اشجار النخيل ترتفع في الحدائق كالجن والعفاريت وقد حدثته عنهم جدته قائلة له ان رؤوسهم تطاول السحاب . ومما راعه اختلاط النساء بالرجال ومحادثة بعضهم بعضاً كأن لا كلفة بينهم . فالمرأة تساير الرجل في الطريق ، وتضحك له ، وتغمزه بعينيها كأن الحرية مباحة بين الجنسين . فقال بخشية وتقى : اي غضبة كان يغضبها جدي وهذه المفاسد تبدو لناظريه؟

وكلما اندفع في احشاء بيروت تعاظم اعجابه بها . وكان يعتقد ان افخم دار في العالم لا تفوق قصر الشيخ بشير في المختاره ، ومهما سمت فلا تجاوز قصر الامير بشير في بيت الدين ، فاذا مايقع عليه في بيروت يكسف لديه قصر المختارة ، وقصر بيت الدين ، ومنازل دير القمر المسقوفة بالقرميد الاحمر . فهنا طوابق تعلوها طوابق ، وشرفات ، وسلالم ، وواجهات فساح من الزجاج الاخضر والاحمر والازرق كقوس قزح . وانى جال بصره صدمته دور

شاهقة يكاد بها وجه السماء يغيب، كأن بيروت تميل الى حجب السماء.

وشعر بما حدث بـه شامل الحاج من روعة . وتمايلت ازاءه وجوه بالالوف لا تنقطع سيولها ، وبدت له الاجساد ترفل في مئة زي وزي . واجتهد بكل مـا يملك من ذاكرة وإلهام ان يعرف وجهاً واحداً من هذه المخلوقات المترقصة في عينيه فما استطاع وهو منها على جهل ، كأنه يهبط عالماً آخر

*

وما وقف الا وقد بات تجاه الخان فادرك ،وهو الغريب ،مأواه. ألا ينزل هنا عمه سليمان عندما يغادر الضيعة الى بيروت ؟. . . أما روى له ابناء القرية انهم يفزعون ودوابهم الى هذا المقر المضياف الجامع بين الانسان والحيوان ؟... وانى يقع على اخوانه ان لم يبحث عنهـم في المثوى الزاخر بالاليفين ، بالمفصح والعجماء ، وقد يكونان على وحدة في الفهم والحس ؟

وعرّج على الخان يعرض الملامح وما خاب . هذا فريد سالم من المختارة . وذاك رؤوف جابر من عماطور ، والاخر حامد الشلبي من المعاصر . وخفق لهم فؤاده واستأنس بهم . وهفا اليهم يصافحهم واحداً واحـداً ويبثهم الاشواق وهو يضحك باغتباط المهتدي بعـد ضلال . فاحتفوا به وتعجبوا من مجيئه الى بيروت واستوضحوه بدهش : ماذا جئت تفعل هنا يا جبور ؟

فاجاب بحيرة وقد احس بكونه ضاع في البلد الرحيب :

والله ... جئنا !

– هل اوفدك جدك في عمل من الاعمال ؟

– جئت ابحث عن عمل !

– وهجرت القرية ؟

– هجرتها وليس فيها غير الموت !

– وما ترى ان تفعل ؟

قال وقد تجلى فيه ارتباكه : هل لكم ان تهدوني الى عمل يدرّ عليّ بالكسب ؟ . . . ضاقت بي القرية وضقت بها وما فيها غير ارض من حديد وسماء من جصّ . اذا رشح سحابها فلا يروي ، واذا اقبلت تربتها فلا تشبع . واذا اشبعت فلا تكسو !

فالتفت بعضهم الى بعض يتساءلون : اين نجد له عملاً ؟

وهم يقاسمونه الرأي في جفاف القرية . فلا عطاء بسوى شحّ ، ولا كساء بسوى منّ . وعرضوا من يعرفونهم من ارباب المتاجر ، أيحتاج أحد منهم الى من يتولى الخدمة في محله ؟ . . . قالوا : سنبحث لك عن عمل يا جبور ، فصبراً !

وجنحوا الى ارضائه وقد استيقظ فيهم حنين الغريب الى الغريب ، مجتهدين في ان يقعوا له على عمل يصونه من الفاقة . بيد انهم خابوا . وأمضّتهم الخيبة فانكفأوا اليه يحدثونه عن وعورة العيش في المدينة . فهي سمحة صلود . تهب وتمنع ، تبسم وتعبس . تصدق وتغش . فما لجفوتها قرار ولا لمودتها دوام . واهابوا به

الى الرجوع قائلين : البقاء في القمة الموحشة خيرٌ من التشرد في بيروت . هنا يوم جوعة ويوم شبعة . فمن لا يجد عملاً ولا يزخر جيبه بالمال يجرفه البؤس ويصبح من زمرة اللصوص او المستجدين !

فمانع في العودة معلناً : لم ابرح القرية كي افيء اليها !

– واذا لم تلقَ في بيروت مغنماً فما يغريك بها ؟

– سأبحث عن العمل حتى أجده !

– ألا ترجع اذا لم تقع على مورد للرزق ؟

– صممت على ان لا اعود . فجئت دون ان يدري اهلي ، ولن ابدو فيهم الا وفي يميني ما يغفر لي نشوزي . فاما ان يدركني التوفيق واما ان يصرعني التعس . فلم اكن في القرية على بسطة كف اندم عليها اذا فاتتني في المدينة البلغة !

فألقوا ايديهم الى خصورهم وتأملوه . انه لجسور . وابدوا آراءهم في بيروت قائلين : والله، الدنيا حظوظ . فقد تنجح في بيروت وقد تصاب بالاخفاق. ومهما يكن فاتكل على الله . عندنا ان العودة اولى . فالمرء في قومه يجد من يعطف عليه . اما هنا في بلاد الغربة فلا نصير . ولن تقع على سوى من ينتشلون من يدك الرغيف ليأكلوه . كلهم ذئاب . ما يبسمون لك عن سوى حاجة اليك . وعندما تنقضي الحاجة يطيرون عنك واذا ابصروك تجاهلوك . ما حولك غير عقبان . فان لم تكن ذا همة

ويقظة دارت الدائرة عليك. نحن جرّبنا وعرفنا وتقلقلت انيابنا لفرط ما لقينا. اما انت فما جاوزت الامس. هذا بلد يقوم على المصلحة لا على المودة. فقد تقضي بجوار من حولك العمر وتظل تجهلهم ويجهلونك. وليس من يكلف نفسه الالتفات اليك اذا مسّك الضرّ. فاختر لنفسك ما تحملك عليه. كلنا يريد لك الخير. وفقك الله يا جبور!

وسكتوا. بذلوا جهدهم في الهداية وللجبور ان يختار. فاما العودة واما الرسوخ. على ان جبوراً وقد اندفع ابى ان ينثني. سيظل في بيروت يبلو فيها حظه. فليس شامل الحاج خيراً منه

وقضى ليلته في الخان يعلل النفس بآمال يحزنه ان تموت. أفليس من حقه ان يجري في مضمار السعداء فيلمس ما كتب له القدر من نجح؟...وظل يتمثل شاملاً. عاد بالف ومئتي دينار وسيعود جبور بالفين. وفي الصباح الباكر جال جولة واسعة في ساحة البرج وعاد يستند الى حاجز الحديقة القائمة في الصدر ويعرض الناس وقد ساروا الى اعمالهم كالنمل طفر من قريته. وساءل نفسه اين يلقى مورد الرزق. واجال باصرته في جميع ما يبدو له من حوانيت وصروح. ولاحت له الانزال والمطاعم تطوّق الساحة كالهالة حول هام الاولياء. فنفض عنه جموده ومشى يطلب المهنة، وكأنه يبسط يمينه للاستجداء، فما انفتح له باب. فالجميع بغنى عن الخدم وقد اتخمت بهم بيروت حتى ملأوا

الشوارع. فانكسف جبور. الا انه لم ييأس ولا بد من العقبات العنُد في الكفاح

وبقي لديه رغيفان . وكان يأكل ما يسدّ جوعه ولا يزيد لئلا ينفد زاده ويده عاطل من القرش فلا يملك شراء ما يدفع عنه الجوع . وسأل اصحاب الخان في نفسه ، أما من طريق يقوده الى حاجته ؟... فحدثوه بلغة المال . قالوا : ان تكن على بعض الوفر فكن سخياً فتمسي إما من الشرط، وإما من الدرك. فالمال يزعزع عفة الناسك ومناعة القاضي !

ولكن اين المال وجبور في افلاس ؟... أصفى حتى من بدل المنامة .قال : لست اشتهي ان اضرب بسيف السلطان . حسبي ان اشتغل خادماً في نزل او مطعم !

فقالت امرأة صاحب الخان مشفقة عليه، وفي المرأة منزع من رفق لا تبرأ من وقعه : جارنا صاحب نزل « الاستقامة » بحاجة الى من يعينه . فاذهب اليه في رجاوتك !

فخشي الخذلان وقال يستغيث: ولكن من يشفع لي اليه ؟

فالتفتت الى زوجها تقول : عليك به. هذا غريب اعمى فكن له ناصراً . هل نسيت ما عانيت من الشدة وانت تخطو في بيروت خطوتك الاولى ؟

وغمزت بعينيها وبدت منها اشارة تقول: أرى صاحبنا خالي اليد ، فأنى يؤدي اليك بدل المنامة وجيبه يشكو النفاد ؟

فقال صاحب الخان يخاطب جبوراً : اذن لننهض . يا رب !

وشدّ بنفسه ينسلخ من جثمته وسار بجبور الى نزل «الاستقامة» القريب من الخان وفي نيته خدمة اثنين ، نفسه وهذا المتزحزح عن وكره في المشارف المعتزلة . وانى له ان يظفر منه ببدل المنامة وهو على إنفاض ؟... ودخل ينادي صاحب النزل بمرح ذي الدالة ويقول مشيراً الى جبور عامر : هذا ابن صديقي وقد هجر القمة يسعى للرزق ، فهل لك ان تنتفع بمجهوده ؟

فحدج صاحب النزل جبوراً بعينين تقيسانه من رأسه حتى قدميه . وانقلبت شفتاه تبديان الفتور . وخاطب جبوراً لا ليقبله في خدمته بل ليرضيه في كرامته ، فلا يظهر منه حيال جاره صاحب الخان الصدود . قال : هل سبق لك الاشتغال بهذه الحرفة ؟

فازعج السؤال جبوراً واجاب بتردد من يرهب الاخفاق : لا !

— أتدري كيف تأتي الينا بالزبن ؟

فاشتد الازعاج بالفتى ولم يقوَ على الجواب . وتولى عنه صاحب الخان الكلام فقال يوضح ويستشفع : هذا فتى اعجر . اقبل حديثاً الى بيروت وهو بحاجة الى صقل ونضج . وارى ان له من ذكائه ما يمهد الى ارضائك . فاقبله في خدمتك بعض الحين على ان ترى من امره ما يكون !

فعاد صاحب النزل يقيس بباصرتيه جبوراً كأنه النحّات او الرسّام وهو حائر في قبوله او رفضه . وجبور ازاءه كالواقف

في يوم الحشر ، مضطرب القلب ، بادي الذهول . قال صاحب الخان يلحّ في الشفاعة : اقبله ولن تخسر . فاذا بدا لك دون العبء وقد اختبرته فارمني به !

فهزّ صاحب النزل كتفيه بمتواني الهمة كأنه يقول: لا بأس به اكراماً لك !

واشار الى جبور بأن يحمل المكنسة ويكنس السلالم. يا للآخرة المشؤومة يا جبور !

واضطر جبور عامر الى الامتثال والا اضاع المنصب «العالي». واعتصم والمكنسة بين يديه بالحكمة القائلة : «مت عاماً وعش الدهر !». وهي حكمة غالية ما انفك جده يذيعها في مسمع كل مغلوب على امره . وفي الامثال والحكم بعض العزاء لمن جار عليه الدهر

وهانت نفس جبور وهو يكنس السلالم . ما هبط بيروت لمثل هذه الحرفة وما أسفّ في بيت ابيه الى هذا الحضيض . وهل من غضاضة كالاشتغال بالكناسة وهي احقر ما ينتهي اليه ذو وكد ؟ ... وندم جبور على المجيء الى بيروت. وكاد يلقي بالمكنسة جانباً ويرجع الى اهله فيستغفرهم، والى القرية فيتمرغ في ترابها ملتمساً عفواً . رحم الله رعاية الابقار وحراثة الحقول ما اشرفهما حيال التقاط غبار النعال . بيد ان هذا المتفادي من الوحشة ، الطامع في الحفض ، اعتزم البقاء يجاهد ويكدح

ولم تزل دنانير شامل الحاج تتوهج امام ناظريه والآمال تموج بين ضلوعه . واخذ يكنس السلالم قائلاً في نفسه: وما عليّ اذا قمت بهذه المهنة الجافية وليس من يعرفني في هذا البلد واعاظم الناس يضيعون فيه ؟

وسمع صاحب الخان يهمس في اذنه وهو ينصرف عنه : لا تنس ان تؤدي اليّ بدل ليلتين قضيتهما في الخان !

*

ضجت قرية الشيخ سجيع عامر لنبأ اختفاء جبور. فقال اهله: بالامس كان هنا ... ورقد بيننا ... فاين امسى اليوم ؟

على ان الجد ادرك اين امسى حفيده. فهو في بيروت . منعه من الرحيل اليها فعبث بالمشيئة الصادعة . ولكن أيبقى طويلاً في بيروت؟... أيساعده زمنه على مغالبة صدماتها ولا رحمة فيها ولا لين ؟

سيعود. فهو دون الجهد . وستنقض عليه الويلات يوم يعود. واستشاط الشيخ سجيع عامر غضباً وتهدد جبوراً. أيستخف الأبله بالعرف ويخرق المقدور ؟

ولم يهدأ الشيخ سجيع . فالغضب امتد فيه الى أقصى ضميره. ونادى اليه ابنه يقول وهو يرتجف حنقاً، فيرقص شارباه الابيضان الطويلان ويتطاير من فمه الرشاش الخانق : لا تبحثوا عن جبور. انا اعرف الى اي بؤرة انتهى . انه لفي بيروت . ابلغني انه

يريد العمل فيها فأبيت عليه الرحيل . فاستهان بامري واندفع الى المدينة غير حافل بي . لم اكن اعتقد ان حفيدي يسخر مني ويجري في اموره على هواه . ولكن غيابه لن يطول . سوف تنبو به المدينة وتلفظه . ألا أنقذه الله مني يوم يعود !

فانحنى الابن في حضرة ابيه وقال : ألا تجيز لي ان انحدر اليه فاجرّه من ناصيته واكسر عليه هذه العصا ؟

وشهر عصاه الغليظة وقد أعدّها لحماره . فنبر الجدّ يتباهى بضلاعته في التأديب : سأتولى ضربه بنفسي . عصاي لا تزال صلبة تحطم الرؤوس!

وأمسك هراوته وهزّها بيمناه تأهباً للضرب. وصرف باسنانه. فالشيخ عامر ما يفتأ يملك قوة الشباب وان يكن شبع من الخامسة والسبعين !

*

— جبور ، يا جبور، اين ابريق الماء ايها الملعون ؟... واين المنشفة ، ألا تسمع الزبن ينادونك؟... وأين حذائي وقد طلبت منك ان تمسحه ؟... أراك بليداً كسلاً، فاين اذنك اقرصها ايها الخنزير ؟

ويكدح جبور حتى يبلل جبينه العرق . ويسير ذات اليمين وذات اليسار وهو يرتدي ثوباً فرنجياً مرقعاً ، ممزقاً من كوعيه، اسود القبة لفرط ما يعلوها من اوساخ ، متناثر الحشوة عن

كتفيه ، مجهول اللون لطول عهده في ساحة الجهاد . ولم يكن يتلهف على حياة القرية وهو يعيش فيها موفور الكرامة ، سيداً او شبه سيد . ولم تزعجه الشتائم تتساقط عليه بلا انقطاع . فهي طريقه الى الثروة ، الى دنانير الذهب وقد جمع منها شامل الحاج الفاً ومئتي قطعة عذبة الرنين

ويخاطبه الزين ابداً بلهجة الامر : جبور ، اين القميص ، هل جئت به من الغسيل ؟... وأين الجوارب ، وأين الصابون ، وماذا حملت من المطعم ؟... اين الحمص والفول والخبز والبصل ، هل نسيت ان تأتي بها يا خادم السوء ؟

وتلعب الكف برقبته : خذها يا شرير !

واحياناً تلعب الرجل بظهره ، وتتدنى مرة بعد مرة الى ما تحت الظهر ، فيصرخ جبور مستغيثاً . على انه لا يلبث ان يضحك راضياً وقد وهبت له اليد التي صفعت قرشاً او قرشين ، واذا احترقت بالسخاء قذفته بثلاثة قروش

وكان يجمع هذه الهبات بحرص الشحيح . فدفع منها بدل منامة ليلتين في الخان ، وما يزال يملك ثلاثة وعشرين قرشاً بتمامها سيشتري بها حذاء . ولكنها لا تكفي . اذن سينتظر ريثما يجمع ما يكفيه . فمن الضروري ان ينتعل وفي رجليه « قبقاب » من الخشب يقلق النيام ولا يقيه الزلق . مداس الضيعة في ، العوض بسلامة جبور . ومن عادة غلمان الانزال ان يلطموا وجه الارض

بقباقيبهم المزعجة المعربدة . فافتدى بهم جبور حفيد الشيخ سجيع عامر . الا انه آثر حذاء الجلد على قبقاب الخشب . وحذاء الجلد ارفع قدراً . أفليس لهذا المتهالك على العمل في بيروت ان يستبقي حتى لوناً فاصلاً من ألوان الأمس الدفين ؟

*

– جبور ، ياجبور، احمل حقائب هؤلاء السيدات الجليلات، ألا تراهنّ واقفات بالباب ؟... اسرع ، لا وفقك الله . انت لا تحسن غير النوم والاغارة على معجن الخبز . اما العمل ، اما الكد ، فلا شأن لهما لديك . اسرع لا ملكت العافية يا ذا الوجه المشؤوم !

فاسرع جبور يحمل الحقائب ويصعد بها الى النزل امام ثلاث نساء تدل مظاهرهنّ على انهن من الراقصات ، من المشتغلات في الليل والرافدات في النهار . ودخل بهنّ وبحقائبهن يعرض عليهن الحجرات . فاقامت اثنتان في غرفة ، وانفردت الاخرى بحجرة خاصة معلنة كونها ذات عشيق . وساءل جبور نفسه : كيف يكون العشيق ؟... أيختلف عن سائر الناس ؟

وأقبل على صاحب النزل يقول له همساً : معلمي ، بين هذه السيدات امرأة تريد ان تكون وعشيقها على خلوة !

وبدا لجبور انه يبلغ سيده امراً عجيباً . فضحك صاحب النزل من حماقة خادمه الحديث العهد في المهنة وصفعه على رقبته وهو

يقول : أتظل معتوهاً يا مقصوف العمر ؟

وأصحاب الانزال لا يبالون من يأوي اليهم. فالمهم ان تمتلىء راحتهم بالوفر. فالعشيق والزوج لديهم سيان. فان هذا الباب عندما ينغلق يهب الحرية للجميع. فلماذا يتململ جبور الشريف العفيف ؟

*

— جبور ، اين انت يا مضروب ؟... ألا تسمع السيدة بهيجة تناديك ؟... بهيجة السيدة المصرية المشتغلة في نادي « كوكب الشرق » بالرقص والانشاد معاً . ألا هيا . أما تملك رجلين من حديد ؟... السيدة بهيجة ستقيم عندنا اربعة أشهر كاملة . فابذل في خدمتها نور عينيك . أتأكل وتشرب وتنام لنشاهد طولك وعرضك ؟... أغليت الخبز يا منحوس !

ويطير جبور الى السيدة بهيجة الراقصة المصرية السمراء، العذبة البسمة ، الضخمة الهيكل ، المالئة ضحكاتها النزل . ويقف بين يديها كما يقف الجندي في حضرة قائده . فيحييها تحية عسكرية شبعى وهو يقول : لتأمر السيدة بهيجة . أمرها على الرأس والعين !

والسيدة بهيجة رخيمة الصوت، وافرة الغنج، خضراء النفس. فلا يغيظها ان تشاهد الفتيان ذوي السواعد المفتولة ، والصدور العراض ، مع كونها جاوزت الاربعين . وراقها جبور عامر فما انفكت تناديه ، لا لحاجة بها اليه ، بل لرؤيته امامها بذراعيه المجدولتين، ووجهه المتدفق نشاطاً ، ولسماع لهجته الجبلية القاسية

المقدودة من أحشاء الصخور . هذا «جدع» قويّ !

وابدت على مرأى منه كل غنج واستهواء . وتحككت به فلامست خديه . وتناولت رأسه بين يديها قائلة والشوق فيها على سعير : انت قمر يا اخي يا جبور !

فخجل . وتورد خداه لفرط حياته . وابتعد وهو لا يدرك مرمى السيدة بهيجة . ووقف على خطوتين منها قائلاً : دعوتني اليك وما ابرح بانتظار امرك . فماذا تشتهين ؟

فالتفتت اليه التفاتة ازدراء كأنها تقول له: حقاً انك معتوه يا بارد الروح ، ذهبت بك الدواهي !

غير انها ما نادته لتخاشنه بل لتستهويه . وما غاب عنها انه ما يزال فجّاً وعليها تليينه . قسوة الجبل ما تنفك ترين على مهجته وقد صانته من المفاسد . فهو يأنف من الابتذال وما نشأ في سوى قوم تحرّزوا من الشبهات وذادوا عن المحارم . فلن تلفحهم سموم المدينة وتصوّح فيهم نضرة الفضيلة . وادهشت سلامة قلبه السيدة بهيجة وما عرفت في الشباب الورع . وازمعت اقتناصه ولن تضيق بها الحيرة . فهتفت به من مبسم تطفو عليه حلاوة الاستدراج ، وبلهجة أشبه بشدو الصدوح قائلة وهي تمايل غنجاً على فرط سمنتها : أتستطلع السيدة بهيجة مشتهاها وانت مشتهاها ؟ . . . ان لبهائك في نفسها مرتعاً خصباً فهلا اهتديت الى مرتعك ؟

فظلّ حائراً في ما تلتمس منه . وايقنت انه لم ينضج وما يزال بكراً . فكشفت له عن صدرها وكأنه سهل توسدته هضبتان . فنفر جبور من المنظر الفاحش وركن الى الفرار كأن الخطر يتوعده . فتململت السيدة بهيجة وقالت في نفسها : ما أحمقه ، انه لخليق بالصومعة !

غير انها أبت الجنوح عنه وقد زادتها ممانعته شغفاً به . فاخذت تناديه بمنطقها المصري الأغرّ : جبور ، اين انت يا اخي ؟... تعال . أتشمخ على الضيوف ؟

فلا يجيب . فتغضب وتعود الى الصياح : اين جبور ؟... ليأتِ اليّ سريعاً . انا بحاجة اليه . الله ، أنقيم في النزل ولا نجد من يخدمنا ؟

وسمع رب المكان واستشاط غيظاً . ما لهذا الخادم المكسال يمعن في تنفير الزبن ؟... وقرص اذنه بشدة وهو يصيح به : يا ابن الملعونة ، ماذا جئت تفعل عندي ؟... ألا تسمع صيحات السيدة بهيجة ؟... أجبها والا طردتك . هل أنتشلتك من الجوع لتبطر ؟... انى تلقى في بيروت على سعتها مأوى آخر تفزع اليه ؟

وضرب برأس جبور الحائط وقاده بنفسه الى السيدة بهيجة معتذراً بقوله : لا تنقمي عليه . هذا فتى غليظ الذهن . اقبل منذ اسابيع من اعالي الجبال وكان يرعى فيها الابقار . فما يبرح بحاجة الى صقل . عفوك عنه !

فقالت السيدة بهيجة بنبرة تتقلب بين الغضب والرضى: وهو ما بدا لي منه . في عقله شيء من البله . لينه شرب من ماء النيل ، اذاً لكان ليناً فطناً. ولكن لا بأس . سيتعلم . سيرضينا ويرضيك . أليس كذلك يا «سي» جبور ؟... تعال هيّىء لي سريري وامسح الغبار عن المرآة . اريد اصلاح زينتي ولا اكاد اتبين ملامحي !

وفسحت له مجالاً الى الحجرة . وما انصرف صاحب النزل حتى اغلقت السيدة بهيجة الباب وطوقت جبوراً بذراعيها الضخمتين كأنهما اعمدة الهيكل وهي تتنهد مترنحة بنشوة الغرام وتقول: ما بك يا اخي يا جبور ؟... اراك لا تفهمني ، مع اني ابديت لك بغيتي. ألا يكفيك التلميح ؟... بهيجة تذوب فيك، يا حلاوتها. وتحبك حب العطشان للماء الرويّ، يامهجتها. أتجهلون في الجبال ماهو الحب يا اخي؟.. يا سلام على الحب ما اطيبه يا جبور، يا عين حبيبتك بهيجة، يا بؤبؤ عينها !

وشدت به اليها بعنف فكادت تعصره. فحاول بجهد المغتاظ الافلات منها . ما جاء الى بيروت ليحب ويعشق بل ليربح الفاً ومئتي دينار كشامل الحاج ابن ضيعته . غير انه كلما سعى للافلات اثخنت السيدة بهيجة في جذبه اليها صائحة به: محال ان تنصرف عني. محال . بهيجة مغرمة بك . متيّمة . لا تعذب قلبها يا جبور ، يا حبيبي . ذقْ طعم حبها واهجرها بعد ذاك ان تكن تقوى

على الهجران !

فصاح متأففاً: "دعيني، دعيني، هذا ما ينهاني عنه الشرف والدين !

فقهقهت ضاحكة . وتعاظم يقينها انه ما يزال حصرماً . وربما شاقها منه ان يكون ذلك الحصرم، فما غزته قبلها قانصة. هي أول من يفتتح الحصن. قالت تأبى ان يفرّ منها: اين قلبك يا اخي ؟... ثلاثة ارباع شبان بيروت يموتون في بهيجة وانت تعرض عنها . اين عقلك ؟...سلامة عقلك يا جبور !

وقبضت على شفتيه تمعن في تقبيلها. فجالت الحياة في الخشبة وما استطاعت ان تتمرد على الشهوة العاتية . وذاق جبور طعم الغرام وشهد له بطيب اللذة . انه لشهيّ . وسخا عليه بالشرف وبالدين . فدته الغوالي والنواهي . هو اوزن من كل ما حشد ابن سليمان الحاج من نضار. لا ، لم يكن جبور مغبوناً وقد هجر القرية وهبط بيروت !

وبعدما كان يتردد في تلبية نداء السيدة بهيجة امسى يهفو اليها كالشرر. فما ان تتحرك شفتاها باسمه حتى تلقاه بين يديها. وأحياناً كان يقبل اليها دون ان تدعوه. فيغور في سمنتها كأنه غريق في اللجة . ونسي بقربها غرامه بالمدينة وبوهج الدينار وقد باتت لديه المغنية المصرية متعة الروح

والسيدة بهيجة استلذت في جبور ما استطاب فيها. ورأت ان تنعم بشبابه ما دامت في بيروت ولا كانت الوحدة القاسية المجسّ.

فهي ام الضجر والنزق. وفتى تتعشقه السيدة بهيجة لا بد ان يكون حسن المظهر، انيق الثوب، نظيف البشرة، سمين الضلع. فيستحم في كل مساء ويأكل أشهى طعام

والسيدة بهيجة تربح من الرقص والغناء مبلغاً ليس بالمتهن. فما عليها وقد انفقت منه على جبور تنقذه من رثاثته ؟... قالت تخاطبه بصوتها النغوم: زحزح عنك أطمارك يا اخي. فما اطيق ان اراك في حقارة هنداء وانت حبيبي. فعلى من تهواه «الست» بهيجة ان يتايل في اكرم حلة، وان يبدو في اشهى طلعة. انزع منك هذه المهلهلات وتعال ارفل في خير زينة. حبيبتك تغوص في التبر الفوّار!

ونفحته بعشرة دنانير من الذهب توهجت في راحته كعين الشمس. فكاد يجنّ ولون النضار يتوقد في عينيه كليالي الغبطة المعدودة في العمر الطويل. وابتسم ابتسامة الغباوة لفرط البهجة. هذه هي النعمة المرتقبة تحبو اليه مصفقة بجناحيها. وشعر بان السعادة وقفت عنده والمال يتهادى اليه عفواً. وقال في نفسه والفرحة تترقص في حناياه على فضفاض النشوة: اين جدي ينظر ما انا فيه ؟... بل اين القرية باجمعها تقبل اليّ فتشاهد ما سموت اليه من عز ؟

وأخفى في جيبه الدنانير العشرة. بل ظل قابضاً عليها حتى وهي في جيبه يستمتع بلمسها وبعدّها ورنينها. وجال على فياش في أسواق

بيروت كأنه لا يشعر بجميع اولئك المارة السائرين حوله و كلهم دونه . وصدم اثنين من الحمّالين وهو يحلق في سماء مجده . وكادت احدى المركبات تسحقه تحت دواليبها . واجتاز سوق سرسق لا يلتفت الى ما فيها من ثياب وامتعة . هذه ليست مرتعه . وطواها الى سوق اياس شامخاً بانفه . وما رضي عن نفسه ، بل عن الخلق ، الا وقد بات في سوق الطويلة . هنا مجاله . ووقف امام محل غالي الاثمان يرتاده صفوة المتأنقين . وطلب شراء ثوب فرنجي من آخر زيّ وأغلى بدل . فنظر اليه ارباب المحل ضاحكين . فما يرتـــدي لا يكاد يستر عورته ، وما يلتفّ بسوى المباذل ، فانى يلتمس ما لا طاقة له عليه ؟... وجاهره احد ارباب المحل بقوله: ليس هنا مكانك يا صاحبي . من الراهن انك تبحث عن سوق سرسق ، لا عن سوق الطويلة ، فتهت عن الطريق !

فاشتعل غضباً وصاح: ومن ابلغك ذلك عني ؟... أتستهين بي والمال في جيبي ؟... اراكم تجهلون قدر الناس !

وفتح يده القابضة على الدنانير العشرة كالملزمة الضاغطة وهدر: انا اعرف بيروت كما تعرفونها . فلو لم اكن احمل من المال ما يساعدني على ارتياد سوق الطويلة لرسوت حيث يدعوني مالي الى الجمود . ولكنكم تقدرون البشر بما عليهم من حلة لا بما في جيوبهم من ذخر . وآفة الجهل العمى !

واولاهم ظهره وانصرف . على ان ارباب المحل ما ابصروا في

راحته الدنانير العشرة ليطلقوه. فلن يخلوا سبيله الا وقد انتزعوها منه بكلاّبة . ولا بأس ان يرشقهم بالكلام المهين وسر الفلاح في التجارة الاحتمال واللين . فالتاجر المتفوّق من يبلع القوارص لاقتناص البوالص ثم يبيح لمن خوت جيوبه ان يرحل بسلام

وشاق أرباب المحل اقتناص دنانير جبور فاخذوا ينادونه بملء حناجرهم لئلا تفوتهم الاكلة الطيبة: ايها السيد،تعال، تعال، عفوك اذا اسأنا اليك !

فنبر مستهيناً بهؤلاء الواثبين في أثر دنانيره باشداقهم القاطعة: لن اعود . تعلموا اكرام الناس قبل ان تتولوا اعتصارهم !

الا ان احد العاملين في المحل لحق به وامسك بذراعه يطلب اليه ان ينسى ويصفح . وعاد به الى المتجرة يقول لرفاقه : عجباً منكم وانتم تجهلون أفاضل القوم . ما ادري كيف ضللتم عنه والنبل يسطع في وجهه. عوّضوه مما اسأتم به اليه بارشاده الى افخر الحلل عندنا !

وجاءه بمقعد طالباً اليه الجلوس. ودعا له بكأس من المرطبات والتفت اليه يقول: تحت امرك يا «خواجه». منزلتك عالية عندنا. لا تعتب على من لم يعرفوك !

وناوله لفافة من التبغ واشعلها له بفيض من اجلال. وعرض عليه الحلل الغوالي وهو لا يفتأ يناديه : «يا خواجه» لدى كل عبارة يتلفظ بها . قال : ليس لك الا ان تختار ، فاي

لون يتفق وذوقك ؟... ولكن ما الاسم الكريم من غير شر ؟... الخواجه جبور ؟.. عاشت الاسامي !... عندنا كل ما ترضى عنه ياخواجه جبور. وأرى اللون الرمادي أصلح لك. فلا يظهر فيه الغبار ولا يعلوه الوسخ. أيعجبك هذا النسيج ؟... وهذا ؟... اتكل عليّ فلا تخسر. هذا جوخ انكليزي يرتدي مثله اكبر وجيه في بيروت. جاء امس وزير الصحة ووصّانا بخياطة ثوب له منه. كن مطمئناً. سترفل في حلة لا ينعم بها غير المياسير الاجلاء. ولن ادعوك الى الاخذ والرد في البدل. السعر معتدل. فالثوب يكلفك خمسة دنانير. هذا لك. اما سواك فلا يحصل عليه اذا لم يدفع سبعة. لا ادري لماذا احببتك منذ رأيتك يا «خواجه» جبور. فالدنيا وجوه. ان ثوباً من هذا النسيج خليق بك، فتتجلّى به طلعتك، وتتجمّل فتوّتك. استنم اليّ وانت الرابح، وحق السماء!

ولم يكن الثوب ليزيد في ثمنه على ثلاثة او اربعة دنانير، ولكن ارباب المتاجر في بيروت ذوو عيون نقّادة يعرفون بها فوراً طراز الزبون. من اي طبقة هو وما عليهم ان يبيعوه. فان يكن من طبقة بلهاء حرقوه، وان يكن ذا خبرة وفطانة داروه

ووقعوا في جبور عامر على فتى لم يعرف النضج فتكفلوا ببلع ما يحمل من نقود. وجبور وقد سمع تلك اللهجة الرقيقة آمن وصدّق وأبى الظهور بمظهر الشحيح. قال: كلي اتكالٌ

عليك. كن سليم النية حيالي: لا تخدعني اذا شئت ان اعود اليك!

فهتف العامل في المحل يتبرأ من الغش: أأخدعك ويشوقني ان تكون ممن يترددون الينا؟... نحن نفتخر بامثالك ياخواجه. ليُغشّ في عينيه من يسعى لمخاتلتك!

وعُقدت الصفقة. وكان جبور فيها المغلوب. فأدى الدنانير الخمسة وهو شديد الغبطة. ولم يبالِ فدح الثمن وما ادى المال من جيبه، بل من جيب عشيقته. لاريب انه من عظماء الرجال كي تجود عليه النساء بالمال وهن يبتلعن المال بجشع لا يهنه بسخاء. وللخواجه جبور ان يتباهى، وان يمعن في الاسراف ما دام المال يأتيه دون مجهود. وبرح محل النسيج الى محل الاحذية واشترى حذاء لمّاعاً تشرق فيه الدنيا. وجاء بقميص من الحرير الابيض. وبربطة رقبة مزخرفة ذات قدر. وبازرار من الذهب لكمّي قميصه وقبتها. وبجوارب من الخز الاحمر كجوارب الاساقفة. وعاد الى السيدة بهيجة وهو يصفق بيديه ويقول: بعد ايام ثلاثة سيكون عشيقك جبور اميراً من امراء الظرف والطرافة!

فامالت به السيدة بهيجة على صدرها الشبيه بالبرج العرم وهتفت بنشوة الحس: يا فرحتي بحبيبي جبور!

ولاحظ صاحب النزل على جبور عامر انه يهوى السيدة بهيجة وقد توطدت بينهما صلات غرام. فالفى الممانع في تلبية نداء الراقصة المصرية اضحى لديها صباح مساء. فكلما ناداه سيده وبحث

عنه لقيه في حجرة الراقصة . وارتاب صاحب النزل بما يتايل فيه خادمه من أبهة . فمن اين لجبور هذه الثياب الثمان يتسلطن بها وصاحب النزل نفسه لا يملك مثلها؟... هل سرق أموال الضيوف؟.. ولكنه أمين وليس في النزل من شكا السرقة. اذن هي اموال بهيجة المصرية. فالطائشة هامت بجبور وجادت عليه بوفرها، جانحة الى لهبة الفتوّة تصطلي بها وهي المملة شباكها ايذاناً بالغروب. وذات يوم وقد بحث صاحب النزل عن جبور واهتدى اليه يبرح حجرتها فار فائره وامسك بطوق الفتى المغبوط زاعقاً: اين كنت ايها المتشاغل عنا وما أراك الا محتجباً عن العيون ؟

فاجاب حفيد الشيخ سجيع عامر بهدوء المطمئن : كنت لدى السيدة بهيجة ، فهل من خبر ؟

— لدى السيدة بهيجة؟... وهل اصبحت أشغالك كلها لديها؟... لا اجدك الا هناك . أتكون السيدة بهيجة النزل بكامله ؟ ... انت لديها في الصباح والمساء ، وفي الليل والنهار ، كأنك وقف عليها . وسائر النزلاء من لهم لقضاء حاجاتهم ؟... أتعبد الله في حجرتها ؟... يا ابن المرجومة ، اريد ان اعرف اي خطة حربية تنظم عندها !

ولطمه . فأخذ جبور في الصياح العربيد : لا حقّ لك بان تتطاول عليّ . انت لست مؤدبي وما انا في نزلك للاهانة . فاني شريف مثلك . وربما كنت اشرف منك . طال شتمك اباي

وانا صابر على المضض . فالى اين تريد الوصول ؟... هذه الحياة الذليلة لا أرضاها. فانا بغنى عن الخدمة لديك ان تكن معاملتك لي سيئة بهذا المقدار !

ودخل حجرته يجمع ثيابه للرحيل . فجلجل صاحب النزل متبرماً به : اليك عني. فبائحك ملأت الارض وكادت تحجب الافق . لست أفضل ممن سبقوك . كلكم يأتينا جائعاً وما ان يشبع حتى ينطح برأسه الفلك . هذا شأن اللئام وكلكم من هذا المعدن الخبيث . اصبحت لا تطاق . الاقذار تملأ النزل والزبن ينادون وليس من يسمع. لقد علوت في الدولة وامسينا باضطرار الى رفع العيون عالياً كي نشاهد لك وجهاً . انا لا اريد في نزلي إلهاً اسجد له، بل خادماً يقوم بالعمل باخلاص . يا ابن الله ، اليك عنا !

ودمدم عليه صاحب النزل ما شاء. وحزم جبور ثيابه ومشى الى هذا الساخط عليه يقول بلؤم واعتداد: هل لك ان تؤدي الي حسابي؟

— وماذا لك عندي ؟... خمسمائة قرش ، ولا منة !

— هاتها !

— اليك بثلاثمائة منها !

— بل اريدها كلها !

واشتد بجبور العناد . قال صاحب النزل يمانع في اداء المبلغ كله : لا املك الان غير هذه الثلاثمائة . وهي تكفيك !

فرفض جبور صائحاً وقد سرّه ان يقبض على خناق سيده ويرد له الصيحة بصيحة مثلها : على من يطرد خدمه ان يؤدي اليهم كل ما لهم عنده !

ووقف متشامخاً كالدعامة المنيفة . فهو يطالب بحقه وصاحب الحق سلطان . وسمعت السيدة بهيجة الصياح والعربدة فأقبلت تستوضح بدهش : ماذا جرى ؟... أنظل في صراخ؟

وتراءى لها فوراً الواقع.صاحب النزل وخادمه في خصام . قالت تسأل خليلها وكلها على تأييد له : ما بك يا جبور ؟... ما الباعث على هذا العياط يا أخي ؟

فاجاب بازدراء : بي ان حضرة السيد يريد ان يصرفني عنه وهو لا يراني على قدر العمل !

وقهقه ساخراً. فاشتد الغضب بصاحب النزل وهتف: أجل، ست على قدر العمل . فالكسل يعميك !

– اذن هات مالي !

وعاد يستمسك بحقه . صاحب النزل مدبون له والمدبون كسير الضلع ، ذليل اللفتة ، مهما بلغ من حظوة . قال سيد المكان : هذه دفعة بما لك . وتعال بعد اسبوع خذ الباقي !

فاستفهمت السيدة بهيجة: وكم لجبور من المال؟

فاجاب صاحب النزل : خمسمائة قرش جئت أنقده ثلاثمائة منها فأبى الا ان يتقاضاها كلها !

قالت وقد لقيت للعقدة حلًا : انا اؤديها اليه مما عليّ للنزل . تعال خذ المبلغ يا جبور !

ودعته الى حجرتها تقول له : أحسنت في مخاصمتك اياه. علينا ان نرحل عن هذا المكان الداعر. اليك بالمبلغ. سنقيم في نزل آخر كالسياح . لست اطيق ان يكون عشيقي خادماً يحمل المكنسة ويلتقط القذارة، وينزل به من الشتائم ما تنفث الغمائم من سيول!

*

اصبح جبور « خواجه » بلا مزاح . فتدلت في يده سبحة الكهرمان. وتلألأ على رأسه، باعوجاج، طربوشه الجديد المقشّش كطربوش شامل بن سليمان الحاج . واخذ يجول في الاسواق بثياب حسنة الكيّ وضاءة ، كأنه من ارباب الثروات . وهل كان له ان يتهادى في مثل هذه الاناقة وهو في اعالي الشوف ؟... ألا أين منه شامل وقد عداه جبور باشواط رحاب ؟

ويبصر ابناء قريته فيخاطبهم بانفة واعتزاز . هم في حضرة « الخواجه » جبور لا جبور حافّ كما عرفوه . وتساءلوا من اي صندوق يغرف كل هذا المال. فلم يدروا. قالوا مبهوتين: ولكنه لا يأتي بعمل !

بيد انهم ذكروا ارباب الحظوظ . فليس شامل الحاج بمن يخادنه وحده التوفيق

ونقلوا الخبر الى الشيخ سجيع عامر جدّ الفتى. فقطب الشيخ

سجيع واهتز غضباً وقال : لا تحدثوني عمن احسبه ميتاً. لم يبق لي حفيد يحمل اسم جبور !

فالسنديانة الشامخة ابت ان تغفر للنبتة النامية في ظلها عصيانها. والمشيب يضنّ بسلطانه ان يعبث به الشباب . ولم يمنع الشيخ سجيع الغرباء عنه وحسب من رواية اخبار حفيده ، بل منع اقرباءه انفسهم من التحدث عن الفتى الشارد ، كأن ختمت عليه الارماس

وجبور لم يكتب الى اهله يطلعهم على احواله. فهو في الاوج والحمد لله وليس له ان يلتفت الى الفلاحين . مالٌ كثير وهوٌ كثير. فالفتى المملق اضحى بغنى عن الجميع والينبوع لا ينضب . بهيجة تشتغل وهو ينفق مما تربح . وكل ما تربح له وقد هامت به الراقصة هيام الاستهانة . وزادتها به كلفاً نضارته . فظهرت محاسنه جمعاء لما ارتدى الثياب القشيبة . ومما راعها فيه انه تبدل في طباعه . فامسى غير ذلك الفتى الخشن ، الابله . فالفجّ بات ناضجاً ، لطيفاً. والجامد الغبي أمسى رشيق الحركات ،داهية، يتلاعب بالعقول ويسخر بالاذكياء. ومن المحال ان يدرك الناظر اليه انه غريب عن بيروت

ولهجته نفسها تبدلت. وأمسى يختلط بطبقة لا بأس عليها. فعرف وهو الى قرب بهيجة فئة من الناس لم تكن تلتفت اليه وهو خادم في النزل . واشترى ثياباً متعددة . ومعطفاً نفيساً .

وبات لا يأكل الا وهو يحمل الشوكة والسكين . وتغطي الفوطة صدره . وركبتيه . ويضغ على مهل طعامه . ولا يرتضي هـذا الصنف من المأكول ولا ذاك . ويتحامى مجالسة من لا يروقه . ولا يمد يده الا تكلفاً لمصافحة من يتوددون اليه . ونسي اكداس الحطب وكان يحملها من الغابة الى المنزل وآثارها لا تزال بادية في ظهره . وتناسى الثوب المرقوع ، واللطمات النازلة به ، والشتائم المنهالة عليه وهو يخدم في النزل . نسي الماضي بكامله وامسى لا يعرف الا انه « الخواجه » جبور . فالسلحفاة ملكت جناحين بزّت بهما النسور

وشعرت السيدة بهيجة بسلطانه عليها . فهي لديه عبدة لا سيدة . فتطيع في كل ما يقدر هـــذا المولى المكرّم على عبدانه والحياة والموت في شفتي السيد الأثير ، له المجد . ورفضت بهيجة العودة الى مصر . فهي في بيروت وستبقى

وجبور لم يكن يشتهي الا ان تدوم النعمة وليس له ان يطمع في ما هو ارفع . وقاده زمنه الى زمرة من الشبان تعيش على جيوب سواها . الى زمرة تبدو في الحلل الباهرة وليس في جيوبها درهم تدفع به ثمن عشائها . فقد تبيت على الطوى ولا تتنزل عن منديل الحرير يتدلى من جيبة الصدر في معاطفها المكوية ، المصقولة ، كأن الخياط لا يبرح ينفض يديه منها ، ولا عن الحذاء المشرق الانيق الممسوح وكأنه المرآة ، ولا عن رائحة العطر العابقة كالجنة

الزاخرة بالاعراف . زمرة يخيل الى من يراها انها من ذوي الجاه والفضل، كريمة الروح ،نقية اليد، وما ان يندمج فيها حتى يوقن بانخداع العين بالمظهر الكذوب . فالطعمة تسرق الكحل من الجفن

وقاد اخوان الصفاء جبوراً الى اندية المقامرة. ولم يكن يعرف من القمار غير الاسم. اما وقد جلس الى المنضدة الخضراء فملكه حب المجازفة وبات من عشاق الميسر المدمنين . لا يجلو عنه في ليل ولا في نهار. وربح في البدء شأن كل من يهم حديثاً بالمقامرة. الا ان الخسارة لم تلبث ان اطلت وهي ابداً بالباب . وهال جبوراً ان يجازف باموال ليست له . وما لبذرة الخير ان تجفّ حتى في التربة الصلداء، ولا بد لها في التواء الضمير من خفقة ارتداع . ولكن رفاق السوء ظلوا به يغرونه بالميسر قائلين : اذا خسرت اليوم فستربح غداً !

على ان الخسارة ظلت تواكبه كالنحس الحرون . وما يخسر تتقاسمه الزمرة . فتحتال عليه في تنظيم المقامرة بما ينزع منه كل ما يحوي كيسه وهو لا يدري انه ضحية خداع مبيّت

وكان يقوى على الانقطاع عن الصبوة المتلاف وما ادمنها ، ولا استحكمت منه ازمتها، اما وقد انغمس فيها،واضحى مجروراً الى النهل من ينبوعها المرّ كأنه ابداً على ظمأ ، وكأن كل قدرة على الوقوف عنها تلاشت فيه مع عبثها به، وتنكيدها اياه ساخرة غادرة ، فالفرار منها بات يحتاج الى اعجوبة . وقامر باموال

السيدة بهيجة تخرس فيه صيحة الضمير الرادع. فليسكت هذا النداء المتصاعد من الحنايا ان اجنح عن المضي في الانزلاق. وطلب من الراقصة المال. طلبه بالحاح، بفحيح، بجشع، باستكلاب. فوهبت له بهيجة مبتغاه دون ان تتردد. ليأخذ ولكن راضياً وليست تريده على مضض. فلن تبخل بمالها على من سخت عليه بقلبها. ولكن آلمها ان ينصرف عنها في الليل وفي النهار. وودت ان تحبسه عن المقامرة وان تستبقيه، فخانها الجهد. ففزعت الى العتاب تقول: ألا تخجل مني وانت تبدد مالي في بالوعة القمار؟

فتأفف وتبرم وقد شرس طبعه ونبر: سأعوضك مما خسرت، فلا تخافي على اموالك!

ولكنه ظل يخسر. قالت: ولماذا المقامرة؟... احتفظ بهذا المال لنفسك بدل ان تبدّده في مهب الريح!

فاصرّ على المضي في التيار وقد عجز عن التماسك واضمحل فيه كل سلطان على نفسه. انه لكليل. فهددته بان تمنع عنه عطاءها. فحنق وتوعدها بالانصراف عنها. وانصرف ثلاثة ايام متوالية لا يبدو فيها للست بهيجة. فذاقت المرّ وقد غاب جبور عنها وهو المستأثر بجنانها. وشعرت بأنها دون القطيعة فاسرعت اليه تصالحه. قال بشترط: اريد ان اقامر!

قالت وهي تمد بصرها الى الغد الجافي: واذا نفد المال؟

— لن ينفد. هل يتراءى لك اني اخسر ابداً؟

– هذا ما يبدو لعيني !

– ولكن ستتبدل الحال وقد اصبحت في المقامرة اقوى ساعداً !

فانفجرت بالاسترحام الكسير : المقامرة تضنيني وتضنيك . فارحم نفسك وارحمني . خذ مني ما تحتاج اليه واستبقه لغدك وقد يضن عليك هذا الغد بما يزجي اليوم اليك !

فاعلن بشدة الموتور ، الناهد الى الانتقام من الحظ المعاند وليس يدري اي سلاح يعينه على اربه : اريد ان اقامر . لا تثنيني عن الشهوة اللجوج والا فدعيني !

وما انفك يهدد بالقطيعة . وقامر وعادت الخسائر تتكردس . وبات ما تتقاضاه « الست » بهيجة من « كوكب الشرق » لا يكفي. وخافت ان تصير الى المهواة فامسكت يدها عن جبور. الا انها لا تكاد تصون عنه مالها حتى يفاجئها بالهجر . فيشتعل في صدرها حبها الجموح وتعود الى صفيّها القاسي راضية بالهوان

وما اكتفى جبور عامر بالمقامرة على مناضد الميسر، بل علق المراهنة في مسبق الخيل . وماذا يخشى وهو يقامر ويراهن بمال لم تتعب في كسبه يمينه ؟

وفي مسبق الخيل تضيع العقول . فيجهل الصديق صديقه ويبيت كل من المراهنين في شغل بنفسه عمن حوله . فلا يتأثر بسوى الجياد الراكضة امامه ، بالمجلّي والمصلّي. فان يكن

راهن على جواد فائز نطقت اساريره بطربه الفيّاح ، والا أخفى رأسه بين كتفيه كالاليف الحزين

على ان « الخواجه » جبوراً لم يكن يخفي وجهه بيديه اذا خسر في المسبق،بل يمعن في المراهنة . فتتعاظم خسائره والسيدة بهيجة بجانبه تحترق كلما طار منه فلس . فهي من يتعب في احراز المال.فتقضي الليل في الغناء والرقص لارضاء جماعة من طلاب الانس يريدونها ابداً في صفاء.واذا بدت كئيبة يصفرون لها بامتهان.ويدعونها احياناً الى الشراب وعليها ان تلبي الدعوة. وان لم تفعل شتموها وشكوها الى صاحب النادي فيقودها اليهم صاغرة . وكانت في البدء تتمرد وتأبى الامتثال. ويعتذر صاحب النادي عنها لدى طالبيها بانها تتحامى المواصلة.وحجتها انها تشتغل لاربعة اشهر في بيروت، وان الاتفاق المعقود بينها وبين صاحب النادي لا يكرهها على اجابة الدعوات المتسافطة عليها من المعجبين بها . اما الان وقد امست من راقصات النادي المزمنات فعليها ان تجيب كل دعوة ولو اضطرت الى مجالسة الخثالة

وادركت بهيجة ان منزلتها هوت عنها من قبل . فاضحت من الطبقة الثالثة وكانت فور مجيئها من الطبقة الاولى. وامست مبتذلة او شبه مبتذلة . وتجرأ عليها صاحب النادي واغلظ لها المقال . فاحتملت في سبيل جبور كل صدمة . وكانت جيوبها تضيق بالمال فثقبها جبور واستصفاها

ورضيت «الست» بهيجة على ان يبقى لها جبور. ونفد ذخرها وقد قامر به عشيقها. فباعت اساورها حرصاً على الضلول. وعرضت على الصاغة عقداً من الماس طار ثمنه في ليلة . وكل مجهود منها في ردع جبور عن المقامرة اخفق . على ان ما يرقبها يجاوز في هوله كل ما انتابها من رضوض

*

في اعماق نفوس المحبين ومضة من ايمان يريدونها متبادلة وثيقة . والحب بلا ايمان نفّاخة تنفجر عفواً وتمحى . و «الست» بهيجة وقد آمنت باخلاص جبور لها اباحت له نفسها وما لها، الا ان جبوراً لم يكن يؤدي الاخلاص وازناً لمن خلعت عليه الولوع بلا امساك. فما ارتوى منها حتى ملّها وبحث عن سواها

وجنح الى فتـــاة رطبة العود ، مصقولة ، غريرة ، خليقة بشبابه وقـد امست المجازفة بهذا الشباب في حب امرأة تجاوز الاربعين غضاضة وغبناً . ومن هي ابنة اربعين وقد ملأت وجهها وجسدها الغضون، وتصاعدت من فمها رائحة كريهة ، واسترخى صدرها ، وترهل خداها ، وشاب رأسها ، واتسعت تحت عينيها الحفر ، ودهم الاصفرار والذبول نضارتها ، وانتشرت في عنقها الاخاديد، ويئست من غدها ؟

قـد يتعشقها فتى ناشىء عزت عليه حواء فاصابه منها جوع وشره . اما من ذاق وعرف فيبتعد عن اللجة . واذا سقط اجتهد

في الخلاص ومال الى ما هو انضر واكنز واصغر سناً . وجبور عامر وقد كرهت نفسه « الست » بهيجة رنا الى فتاة لا تبلغ العشرين . واذا امتد بها العمر وقفت بالخامسة والعشرين . فما انكسفت فيها اللدونة ولا فاتتها الجهارة . ولكن علتها انها ابنة طائشة وثبت من خليـــل الى خليل وانتهت الى جبور حاشد كل عتيق، كأنه متحف آثار . فاحبها وجاد عليها باموال « الست » بهيجة . من عشيقة الى معشوقة . واحست بهيجة بأن جبوراً اخذ يسلوها فاضطربت ورصدت حركاته . ألا نعيم في الوله ؟... وعلمت انه يهوى ثريا الكافوري ، فتاة ذات جمال قاسٍ ، الا انه جذّاب . فالناظر اليها يشوقه ان يتأمل محاسنها على قسوة هذه المحاسن ودعارتها . وما كادت « الست » بهيجة تلمّ بالنبأ الجائح حتى تواثب دمها الى رأسها واصابها جنون هاتك. فاندفعت الى جبور تمسك بخناقه وتصيح به من كبد تفور حقداً : يا ابن الفاجرة ، أتخونني ؟

وضغطت بملء قواها بيديها الاثنتين . وضربت برأس عشيقها الجدار . وما جحظت عيناه وحده ، بل جحظت مثله عيناها افرط نقمتها وخيبتها . وكادت تقضي عليه لو لم يسرع خدم النزل ويبعدوها عنه . ولكن « الست » بهيجة ابت ان تبتعد وكانت تصيح : ايها الناس ، يا جماعة ، تعالوا انظروا الكافر ابن الكافر . اطعمته مالي وحياتي وانقذته من الفقر فكان ان

خانني وعشق سواي . تعالوا انظروا الجيفة النتنة وقد جعلت منها بشراً عطر الفوح. هاكم اللئيم ابن اللئيم وقد قابل المعروف بالجحود !

ولم تهدأ وقد تمادى فيها الصياح . فكانت تتواثب بين ايدي الممسكين بها وتبصق في وجه جبور وهو ينتفض غيظاً ويشتمها . ولكن اين شتائمه من مطاعنها الطامسة ، المبتكرة ، وهي أمضى لساناً وابلغ منطقاً ؟... ولم يكن منها وقد افلتت ممن يقبضون عليها الا ان نزعت حذاءها من رجلها وأهوت به على رأس جبور. فليذق الهوان من يسترسل الى الخيانة . فضاق جبور بالمذلة وعمد الى مسدسه يشهره على المغنية المتطايرة الزعقات الشوادخ . فكشفت له عن صدرها وهي تنفث الزجرة والفحيح صارخة ببأس الظليم : اطلق عليّ رصاصك يا منكر الصنيع . ارمني بالنار . فعليّ ان انال جزاء اساءتي اليك وقد رفعتك من الضعة الى النباهة ، من البؤس الى النعمة . كنت تموت جوعاً فاجريت عليك مالي فشبعت ، وبعت لاجلك حلاي فبطرت ، ولقيت في سبيلك كل عثرة فكافأت برّي فيك بالكنود يا ظالم. اجل ، اقتلني وقد القيت نفسي الى امثالك من ابناء الازقة !

وبلغ صياحها مسامع شرطي يجتاز الشارع فدخل النزل يسأل ما الخبر. وما لاح له جبور شاهراً مسدسه حتى قبض عليه قائلاً بنبرة حاسمة يفشو فيها الغضب : إلحق بي الى دار الامن !

فصاح جبور بنزق : وماذا في دار الامن ؟ . . . انا هنا وسأبقى !

فلم يزد الشرطي على ان جذبه اليه وجرّه الى المخفر دون ان يكلف نفسه ايضاحاً. وانتزع منه مسدسه فيما يدفعه في السلم باحتقار ومضض . وتعالت صيحات الفرح من حنجرة «الست» بهيجة : سلمت يداك يا أفندي . ادامك الله يا سيدي . هذه آخرة اللص ، غامط الفضل . جازفت في سبيله بمالي وسمعتي فاعرض عني كأني الثوب البالي . انها لانكد مصيبة ايها الناس، فابكوا معي على حالي !

وجبور استنزف منها آخر قرش وما ابقى على سوى خاتم من الماس في بنصرها . اما اساورها وقلائدها فطارت كأنها ذرارة في مبلغ النوء . وانذرها صاحب « كوكب الشرق » باستغنائه عنها . فلها ان تبحث عن عمل في ناد آخر وزبنه ملّوها لفرط ابتذالها،وشاقهم ان يبصروا وجهاً غير وجهها. فلم ترَ، وقد تهدمت من كل جانب، غير الرحيل منفذاً للخلاص من محنتها . فزمّت حقائبها وجبور في السجن ، وباعت خاتم الماس المتوهج في يمناها،وركبت البحر الى الاسكندرية تنجو فيها من جبور عامر واستهانته بها وقد بدد ثروتها، وازرى لدى البيروتيين بسمعتها. فالست بهيجة فقدت في بيروت بهجتها . وكانت تقول في جبور بمرارة كاوية حين تتذكره، وما اكثر ما تتذكره وهو

ذو يد في مسرتها وفي مسكنتها معاً : هذا ابن كلب ، مزقت الغشاوة عن عينيه فدرى انه عقور فنهشني !

وأقسمت ألا تعود الى بيروت . حسبها ما لقيت فيها . ستعيش في وطنها وتجمع فيه ما يرد عنها عضات الايام المتجهمة وقد أصفت ، وشاخت ، ولم يبق منها غير عود يابس

*

جبور في السجن !

وارتعد وهو يدوس عتبة معقله ، وتقع عيناه على الظلمات الراعبة ، وتملأ انفه الرائحة الكريهة

هو في السجن ولم يكن يعرفه على سماعه به . وكان جده الشيخ سجيع يقول : « السجن للابطال ! » . على ان جبوراً لم يرَ البطولة في الاقامة في هذا الدهليز الموحش ، والثواء منه بحجرة عرضها خطوتان وطولها ثلاث خطوات . اذا نام فيها ضاقت به . واذا جلس شعر بانفاسه تعود اليه . فهو في مخنق . وعلى مَ ينام ؟... على حصير بالٍ يسرح فيه البقّ ، وربما القمل . ولا يلمّ به الهواء من سوى كوة عالية تشتبك فيها قضبان الحديد ، فيختلط بنتن الحجرة ويتنشق جبور الادناس

وندم على هفوته . فلم يكن له ان يطعن جهجة في سويداها وما أساءت اليه وهي الباذلة في اكرامه البال والمال . وانتظر ان تقبل اليه في سجنه فما بدا لها وجه . اكتفت بما لقيت من

قبيح الكفران وشمّرت في الرحيل

وسأل عن ثريا الكافوري . أما تذكره بنضاضة من خير من تهالك على مودتها وأفاض عليها اليسر ؟ . . . فضحك منه رفاقه السجناء وعالنوه : أتبحث عمن تجد حبيبها في مبلغ ما تصطاد من وفر ؟... هذه فتاة تعشق الدرهم . فما دام الدرهم في يمينك فهي في يمينك . ومتى نأى عنك سبقته في الهجران . مات في حسرتها حفل حفيل ذهبت بنقودهم وبعزماتهم ، وانت منهم . فالافضل ان تنساها والا ذقت الصبر !

فتدلى رأس جبور الى صدره وشعر بضلاله . واقام يرقب ان توافيه بهيجة الى السجن رأفة بالحبيب الخاطىء وتصفح عنه . وجهل ان «الست» بهيجة رحلت الى مصر . ولما سقط اليه النبأ راعته الخسارة . فالسعادة جنحت عنه بصدود المفتونة الوفى . قطعت البقرة الحلوب رباطها واثخنت في الهرب . فمن يطعمه بعد اليوم ، ومن يشتري له الثياب النفيسة ، ويملأ جيوبه بالمال ، ويهب له الروح والجسد ؟... ثريا الكافوري تقلقه بمطالبها . فتريد اليوم ثوباً من الحرير . وغداً قبعة . وبعد غد حذاء . هي بحاجة في هذا الاسبوع الى خمسة دنانير . وفي الاسبوع التالي لا تكفيها الخمسة . وفي الاسبوع الآخر قد تكون بحاجة الى عشرة . وجبور كان يدفع . كان يدفع بسخاء . ولكن من اموال بهيجة . فيقتنص مال الراقصة ويخونها . اما الان فمن اي كيس يغرف ؟... وكم يطول سجنه ؟... ربما

أقام في السجن شهراً ، وربما امتد الثواء الى عام طويل. وبحث في كيسه عما يؤدي به انعاب محامٍ يدافع عنه، فلم يقع على ما يرجح ثلاثة دنانير. واستنجد بمن ينقذه على ضؤولة سعته فاستولى منه المحامي على دينارين دون ان يتوفر على خدمته. فألح جبور في السؤال عن هذا المنافح عن المنكوبين بنزاهة، فاذا بجبير الملهوفين يغالي في الابتزاز فيقول : لا ارال بحاجة الى ثلاثة دنانير !

فباع جبور ثوبين من ثيابه الفاخرة ونقد المحامي الامين ثمنهما. فطار الثمن كما طار الثوبان والمحامي لا يزال يلح في الطلب. وسيق جبور عامر الى دار العدل فكان نصيبه من القضاة السجن نصف سنة . فلا هوادة وما على الحق ان يخزى كرمى عين جبور . وانتاب الهذيان حفيد سجيع عامر . فالصدمة ناخعة . وخيل الى سامعيه ان خولط في عقله . وازجاه حراسه الى حجرة فسيحة تبجيلاً وتعظيماً . فبدت له أضيق من فرجة الأمل في كاسح اليأس وثمة اربعون سجيناً تختلط أنفاسهم بعضها ببعض . ويعلو شخيرهم وسعالهم فيكادان يصمّان الآذان . فقال جبور وقد هان حتى امسى هباءة : ويلي ، أضاعني الغرور !

وتمنى لو مات تحت قدمي بهيجة ولا فكر في خيانتها ، وفي انتضاء مسدسه عليها يبغي البطش بها ولا ذنب لها لديه. وتذكر الضيعة وود لو بقي فيها يرعى الابقار ، ويحمل اكداس الحطب والبلاّن من الكرم ، وغابة الملّول ، والوادي الخصيب ، ولا

كانت بيروت ، ولا غوانيها ، ولا ذهبها ، ولا سجنها . فما فيها غير زخارف تغري، ولكنها تغوي ونعيمها جحيم !

*

لا بد للاشهر الستة ان تنقضي

وعرف جبور كل ضيق في هذه الليالي الحوالك . فكتب الى اهله يبلغهم انه في السجن فما اسرع اليه منهم احد وقد انكروه . فالشيخ سجيع يتعالى عن ان يضم الى ذراريه هذا العنيد الملتوي. وكتب الى اصدقائه،الى من عرفوه على اخضرار وفر وقادوه الى المقامرة، فما التفتوا الى من عدا عليه الاملاق وقرّ في السجن . وتجاهلته ثريا الكافوري وهي تتبلغ دعوته . فمن هو جبور؟... وهذا التعامي عنه سحقه وادرك به قدر المودة . فنبذه الجميع وامسكوا عنه رفدهم حتى لم يكن يجد بين يديه ثمن لفافة . واضطر الى خدمة رفاقه السجناء كي يقع على دريهمات معدودة يشتري بها تبغه وبعض الفاكهة

وفكر في شماتة جده به ، وفي ما اقبل فيه الى بيروت من غزوة كادحة ساقته الى السجن . فلو صان اموال بهيجة المصرية عن المقمرة والمسبق لكان لديه منها ثروة لا تقل عن ذخر شامل الحاج . ولكن البطر اعماه فكفر بالنعمة ، وعثر فتحطم كلوح من زجاج لم يبق منه غير نثار شتيت . وبرح السجن اصفر اللون، خالي الجيب ،فاتر الهمة . وحاول ان يعيش . أيعود الى الخدمة في الانزال

بعد العز الماتع العريض ، فيخدم الناس وكانوا في خدمته ؟

وحزّ في أضالعه الندم . ودرج في الطرق المقفرة لئلا تحدجه عين فتزدريه . وغاص في ذكريات العهد السمين . وارتعش في ذهنه انه ادان صديقاً خمسة دنانير على ان يعيدها اليه بعد اسبوع . وشخص يطالب بدينه . ولكن الصديق استنكر الدين ، بل استنكر جبوراً . فسأله متجاهلاً : من انت ؟

فكبر الامر على جبور وصاح مبهوتاً : ألا تعرفني ؟... هل نسيت انك استدنت من جبور عامر خمسة دنانير ذهباً على ان تعيدها اليه بعد اسبوع ؟... انا جبور عامر . سجنت وبرحت السجن والاملاق ينتابني ، فاعد اليّ مالي ، ابقاك الله !

فكان الجواب خشناً قاسياً : أانا استدنت منك مالاً ؟... هذه قحة لا يطيقها حلمي . فمتى سخوت عليّ بهذا العطاء ؟

— يوم كنا الى منضدة الميسر في نادي « الزهرة » وكنتَ قد خسرت كل ما تحمل من نقود !

— لا اذكر . لا ريب انك واهم . ابحث في اغوار ضميرك فتدرك انك لم تنفحني بهذه الدنانير !

فقال جبور مسترحماً : وهب ليس لي عليك دين فاني ابرح السجن ولا املك بدل رغيف ، وانت صديقي ، فهل ترضى لي بالمهانة وتبخل عليّ بما يسدّ رمقي ؟

وشعر جبور بالمذلة وهو يخاطب صديقاً له بمثل هذا القول

البكيّ . مع انه لا يلتمس احساناً وهو ذو حق نطّاح . فلم يكن من « الصديق الوفيّ » الا ان نفض جيوبه وهو يقسم بالله انه لا يحمل قرشاً . دفع امس بدل الايجار وبات لا يملك ما يؤدي به بدل عود ثقاب . فعضت الخيبة حنجرة جبور وقلبه . والتفت الى «صديقه» التفاتة طافحة بالكمدة تشير الى عتبه وألمه . ومضى يهز رأسه ويقول : هؤلاء هم الاصدقاء . عرفوني في اليسر وانكروني في العسر . صدق جدي في قوله: « يا كثرة اصحابي و كرمي دبس ، ويا قلة اصحابي و كرمي يبس » !

وعرّج على صديق آخر يسترفده . فقد يصدق السراب . غير ان الخادع لا تنعقد له وحدة والظل اصدق مخبراً . فلقي جبور لدى الخدين الآخر ما لقي لدى الاليف الاول، ورحم الله الوفاء. وخاف ان تتوالى الصدمات و كلها موجعة ،و كلها ينعى الاخلاق . ورأى ان يبحث عن عمل يقيه شر السؤال . وأي عمل يجيد؟... ليس له الا ان يشتغل خادماً في نزل . وطاف في الانزال جمعاء ليرسو في نزل « الروضة » وفيه اهتدى الى ما يدرأ عنه العثار . والنزل ارفع مستوى من مأوى « الاستقامة ». فتتردد اليه فئة ذات شأن . والنظافة فيه موفورة . وخدمه يرتدون الثياب البهيجة المنظر كأنهم سادة المكان . والاجراس مثبتة في كل حجرة . فلا تصفيق ولا نداء . والمقام مثلث الطوابق ، اتقن اربابه رياشه وقد اذابوا فيه كل ما ملكت ايديهم من نضار

وفي نزل « الروضة » قاعة للميسر كان جبور يرى الاموال تتناثر فيها فتشتاق نفسه الجلوس ساعة الى احدى المناضد الخضر المبسوطة باستهواء في الصدر وفي الزوايا. وودّ لو يملك ديناراً واحداً يقوى به على المقامرة . واستدان بضعة دراهم من رفاقه الخدم فكان نصيبه الخسار . فامعن في الاستدانة فما انصرف عنه النحس . فحار في امره . وطالبه دائنوه باموالهم فاخذ في المماطلة . فشكوه الى ارباب المكان فوعد بالاداء على ان يمهلوه اسبوعاً . وكان يبصر اكوام الذهب امام المقامرين فيتحسر عليها . ولاحظ في احدى الليالي على مقامر دمشقي انه ربح من اموال القمار ما ناءت به جيوبه فاضمر له الشر . وفيما المقامر ينهض الى حجرته في النزل ليرقد فيها ، وكان قد لاح الفجر ، لحق به جبور . وما كاد الرجل يغمض عينيه حتى كان الخادم ينسلّ الى الحجرة ويجسّ الجيوب ويتناول منها خمسة عشر ديناراً ويتوارى . والمقامر ، وقد ربح مئات الدنانير ، لم يشعر بما ضاع منه . وقد يكون شعر وما بالى . فمن يربح المئات لا يحفل بالعشرات . واستطاع جبور ان يؤدي ديونه وان يجلس الى منضدة الميسر. بيد ان الحظ ظل عابساً لا تنقشع له جهامة . فناح جبور على نفسه وقد نفد منه المبلغ . واعتزم ان يرتدع عن القمار فما اسعفته شهوة الربح المتلظية فيه وما تنفك تطغى على نهيته ودمه . فهو اسيرها. وفكر في وسيلة تهب له الوفر فلم يجد من باب مفتوح غير السرقة

فازمع العود اليها. ولكن اذا قبض عليه فما يصيبه من ارباب النزل وممن يسرقهم؟... فلن ينجو في كل مرة من العقاب كما اتفق له في المرة الاولى

وخشي السرقة فتردد في ولوج بابها . وقامر بما كسب من اجر فما ارتوى . واحس بالظمأ الى المضي في الغيّة الممسكة بزمامه تدحرجه في مزالقها ، وتهشمه اضراسها ، فتماسك على الالم وهو المتداعي المشيّة حيالها. ولم يجد بداً من السرقة وقد استهواه الطمع في الغنى الحثيث. ومن له سوى زبن النزل يسرقهم، وخصوصاً من تضخمت جيوبهم بالذهب ؟... وكانت تقيم في النزل سيدة من نساء حيفا انتقل اليها ارث عمتها الضخم . ومن هذا الارث دارٌ في بيروت لا يقل ثمنها عن اربعة آلاف دينار. فباعتها واودعت المصارف الثمن، واستبقت لنفسها مئة ذهبية برّاقة الوجهين ريثما تبلغ حيفا . على انها بحثت في مصانها عن القيمة فلم تجدها . فقامت قيامتها وشكت امرها الى ارباب المكان . في نزلهم أضاعت مالها ، وعليهم درك الوزر . وخشي الارباب ان يشيع عن النزل ان السرقة منتشرة فيه فارتابوا بجبور الشره الى القرش. واغاروا على جيوبه وسريره فاهتدوا الى الشطر الاكبر من المبلغ. اما الشطر الآخر فقد ابتلعه الميسر بهناء

ونقم ارباب النزل على جبور عامر اللص وضربوه. واعتزموا ان يجرّوه الى دار الامن . بيد ان السيدة المصابة بنقودها

اشفقت عليه وطلبت ان يخلى سبيله . يكفيه ان يُطرد من الخدمة . فاجابوها الى الرغبة ، ولكن بعدما انهارت اللكمات واللطمات سيولاً على النذل . وصرخ جبور واستغاث فلم يجد حوله غير الناقمين الشامتين . وتدحرج الى الشارع وهو لا يكاد يقوى على المسير لفرط ما نزل به من ضرب . فاين ما اجمع على حشده من دنانير ليعود بها الى القرية ، فيكسف انوار شامل الحاج ، صاحب الالف والمئتين من الرنان الوهّاج ؟

*

ماذا لجبور بعد كل هذا العناء ؟

سدت الانزال ابوابها دونه . وكل من يعرفه بات يحتقره . فهو مقامر مجرم . ألا رحم الله تلك الايام الهادئة ، في أعالي الشوف . سمعة عطرة ، واكرام لا بأس به ، ونفس أبيّة ، وبطن ملآن . أما اليوم فخسة ، وجوع ، وعري ، وامتهان . اين من كانوا يستدينون منه المال وينادونه وهم ينحنون باجلال : يا «خواجه» جبور !

وضاقت به دنياه . وبات شديد الخجل من نفسه . فهو لص . على انه وقد غاص في اللجة اعتزم ان يتابع غوْره . سيغوص حتى الاعماق في الدرن . هذا هو حظه . ولم يشأ ان يقضي ايامه بلا عمل فيضطر الى الاستجداء وما تعوّده . فلم تزل تنطوي نفسه على بقية من أنفة تضيق بالسؤال .

وسقط على خمارة دون الدركة الخامسة تتردد اليها فئة من ابناء الحنجر والمسدس . وتشتغل فيها نساء نبذهن المجتمع فاقتعدن الحمأة يكابدن الضرب والشتم والفحشاء. وتولى جبور الخدمة فيحمل الى الزبن الكؤوس والزجاجات والأقداح . ويكنس الارض . ويشتري علب اللفائف . وينادي ماسح الاحذية . وينام في الخمارة نفسها على مقعد طويل من الخشب لا يستره لحاف . ويذكر ماضيه الناصع الاسفع معاً وقد عاش فيه على نقيضين. ويتجلى له عاره الطامي فيعمد الى الكأس ويفرغها في احشائه ليسكر وينسى . فهو الآن سكير ضائع عن الصواب . أضاف الى القابه المتعددة لقباً آخر يفاخر به عشاق الرتب والالقاب !

وما برح يفكر في اقتناص الثروة . لن يعود الى القرية الا وفي جيبه الفا دينار . أيكون شامل الحاج خيراً منه ؟... وماذا يقول فيه ابناء قريته اذا عاد اليهم كما انصرف عنهم ؟... ولكنه لن يعود كما انصرف حتى مع املاقه. فلقد احرز قسطه من هبات المدينة وطبعته بيروت بميسم المناكيد . أما عزف عن قريته ناصع الجبين وها هوذا ينوء بالرجس والزلل ؟

ولم يمت فيه حنينه الى المقامرة . فهي وحدها تصل به الى المنشود . فأخذ يشنّ عليها الغارة كلما رسا في جيبه قرش . الا ان النحس لم يهجره وقد طاب له في كنف جبور المقام .

فضاق الشاب وسعاً وازداد للشراب ادماناً . وأصبح رثّ الملامح ، بالي الثياب ، كأنه في الاربعين وما يزال في جنة الشباب . واحدودب ظهره. وتثاقل خطوه. واضطرب ضميره فأمسى قلق البال ، تائه النظر ، يخاطبه الزبن وكأنه لا يسمع . واذا سمع فلا يدرك فوراً ما يريدون منه وهو في بحران . اقبل على الذهب يغرفه وامسك منه بمقدار ، الا انه درج في الصعيد الملتوي فاضاعت يساره ما كسبت يمينه وضاع وما كان ليتوب

ويضربه بشدة صاحب الحمارة ليستفيق من خبله ، على ان الغفلة المستحكمة منه تأبى عليه السكون الى الرشد. وفي احدى الليالي وقد اكتنزت الدجنة ، واشتد الميل بجبور الى القمار كما يشتد الظمأ بالدارج في فلاة ذات جفاف وأوار ، هجم حفيد الشيخ سجيع على احدى المشتغلات في الحمارة وامسك بخناقها يهددها بالموت اذا ارتفع لها صوت . فتقلبت بين يديه بجهودة مرعوبة . وشاءت الصياح والاستنجاد . فشهر عليها مدية من مدى الحمارة . ليس لها ان تفيض بنأمة . ودعاها الى نزع اساورها من يديها كي يقامر بها . فاذا ربح اعادها اليها وكان لها منه نصف الارباح

وعاندت المرأة واساورها ثروتها وزاد شيخوختها . ولكن جبوراً اصرّ على امتلاك هذه الحلى . ولما اعتصمت المرأة بالممانعة طعنها في خاصرتها واستولى على اساورها عنوة . والحمارة خالية من الزبن . والساعة تدق الثالثة بعد نصف الليل.

فالجميع انصرفوا حتى رب الحمارة . ولم يبقَ ثمة غير جبور والضحية المكدودة البالغة الثامنة والثلاثين. وهي فضالة الفضالة. ملأت شفتيها وخديها الحمرة مع ما في شفتيها وخديها من ذبول . فبدا وجهها على ما يعلوه من زينة اشبه بقناع المساخر . يهيج الرهبة والاشمئزاز . على ان الحمارة وهي في الدرك الادنى لا تتسع لنساء أرفع شأناً. يا مثلنا تعالَ الينا . وعلى هذه المقهورة البائسة ، النابية بها الدنيا ، تجرأ جبور . فهو يريد ان يقامر ، ان يربح ثروة طائلة ، ان يعود الى قريته بالمال الوافر . فالمال وحده يمحو ذنوبه ويستر عيوبه. وكيف يقامر ولا مال لديه؟... فاذا ملكت يده بضعة دراهم طارت في لحظة في بالوعة الميسر. وليس يملك سواها طمعاً في التعويض . على حين اذا قبض على مبلغ طائل استطاع ان يجازف ، فاذا خسر في البدء ظل يطمع في الربح بما يعتصم به من ذخر

اما وقد مانعت المرأة في ان تدينه اساورها فاستولى على هذه الاساور اقتداراً. وطعن صاحبتها في خاصرتها طعنة لم يشأ ان يقتلها بها ، ولكن اذا ماتت فالتبعة عليها . لماذا عاندت؟... كان عليها ان تلقي حلاها على الفور بين يدي جبور . أفلا تثق به وهو من ذوي الامانة ؟...ثم اي حاجة لها بهذه الاساور تبهر بها العيون وهي مالٌ جامد في معصميها لا يأتي بعائدة و كأنها تدفنه في أحشاء التراب، بل كأنها تقول للمملقين : موتوا كمداً،

انا أفضل منكم وقد ناءت بالذهب يداي !

وجبور لم يطق هذه الدغدغة . فاستلّ الاساور وركض الى المقمرة . وظل باب الحمارة مفتوحاً . فلو شاء اللصوص ان يلجوه ويسرقوا كل ما هناك من اقداح وخمر لفعلوا . الا ان حارس الليل بالمرصاد . وحارس الليل لم يسمع الضجة في الحمارة وجبور قبض على المرأة في شبه كهف يغص بالحوابي وكان منه فيها ذلك البطش الذريع

واستقر بالمقمرة ، بهيكل عبادته والمقمرة عنده معبده . وطرح الاساور امامه يقامر بها . ولم يحفل بما سيكون من أثر عنفه في ضحيته وقد امست لديه الحياة شرارة لها ان تنطفىء او ان تظل على اتقاد. وقامر بسعة . فاذا الارباح تتكدس أمامه . فماجت الغبطة في نفسه ووجهه واستمر في المقامرة . فتعاظمت الارباح. امامه مئة دينار ذهباً . مئة دينار تشع كأنوار الشمس في الصيف . ونصحه بعض رفاق له بالقناعة . فما ربح يكفيه . ولكن جبوراً وهو الجوعان لم يشبع. واذا الاكداس تذوب. فتلاشى من المئة خمسون . وسقطت في الهواة الخمسون الباقية واحدة تلو اخرى. وتهادت الأساور الى البالوعة فذابت فيها. ولم يبق لدى جبور غير رقعة من ذوات القروش الخمسين. رقعة واحدة. أيصونها عن الذوبان وقد جازف بما هو أغلى ام يستبقيها ؟... لا. سيطرحها في الحفرة كما فعل بسائر امواله، بل باموال الراقصة

الجريح . فاما ان تذوب فيها واما ان تعيد اليه كل ما اصيب بـه من خسار . والقى الرقعة في اللجة فغارت في الاعماق لا تبين . فخـارت عزائم جبور . ولو كان يحمل مـدساً لانتحر . والتفت الى منضدة الميسر يلعنها ويقسم على الانقطاع عنها. عرف حظه فيها . وتذكر ما أبقى بعده في الخمارة فهاله ما اقدم عليه وركن الى الفرار .

الى أين ؟

أيفرّ الى قريته في الشوف؟... يا للمخزاة !... لن يفرّ اليها وهناك يرقبه من البلايا ما يرجح ما يقاسي من الاهوال في بيروت. سيفر اذاً الى دمشق. وهو لا يعرف دمشق غير انه سيهتدي اليها. وكان الفجر قد انبثق . وتعارفت الوجوه . ولكن ماذا يفعل جبور في دمشق ونفقات الطريق غير موفورة لديه ؟... واذا بقي في بيروت فما يكون منه ؟... سيقبض عليه رجال الامن ويطرحونه في السجن . وقد تكون المرأة المشتغلة في الحانة قد ماتت . وأي عقاب هائل سينقض عليه ان يكن خطف انفاس تلك المسكينة المرزوءة بالحسن واليسر ؟

وتمثل السجن . تمثل القيد والحرمان . فهو قاتل . وهـذا لقب آخر ينعم بـه . له الله كم تراكمت عليه الالقاب . فمن خادم نزل، الى عاشق، الى مقامر، الى لص، الى خادم خمارة، الى قاتل مخيف !

وكقابين الهارب من وجه ربه لغدره بأخيه هابيل فرّ جبور عامر الى دمشق من وجه رجال الامن. فرّ وقد شخص له انهم سيفاجئونه لدى كل خطوة . فهم في هـــذه الزاوية . وراء هذه التلة . في ذلك الكرم من الزيتون . تحت تلك الشجرة من الصفصاف . ويرتجف قلبه ، ويرقب عند كل ثانية ان يلقى القبض عليه ويزجى حثيثاً الى السجن

انه لمجرم . هاتان هما يداه تخضبهما الدم ، بل كله يغوص في الدم وقد زلت به القدم في بحيرة من النجيع القاني يخشى كلما خطا فيها خطوة ان يغرق. وتراءى له انه يغيب في جوفها . فمن ينتشله ؟... من يمد اليه يد الانقاذ ؟

قاتل ، قاتل !... ما اعظم وقع الكلمة الحمراء عليه . انه ليتمثلها تنقش في جبينه بالنار ويحس بكونها تحرقه . وجحظت عيناه . وبلل جسده العرق الملتهب . كيف تجرأ على المسكينة وطعنها بالمدية واغتصب حلاها؟... هل لعب السكر بلبه فاعماه؟... هل أصيب بالجنون ؟

قاتل ، قاتل !... ما برح النداء يطن في اذنيه. اجل، هو قاتل ، وهذه آثار الدم تلطخ ثيابه . كيف لم يبصرها المقامرون وهم بجانبه ؟... ولكن المقامرين يعمون عن كل ما حولهم ولا يرون غير الورقة الرابحة او الناهدة الى الربح، والاموال المطروحة الى المنضدة والمتدحرجة في البالوعة. ولا تقع في اسماعهم غير الكلمة

المنطلقة ايذاناً بالربح والساخرة في مطاويها بالخسران والخاسرين. وها هوذا يبلغ عاليه وكلما لاح له وجه من الوجوه خيل اليه انه يجد فيه أحد رجال الامن . وأخذ يرتجف لشدة خوفه . ومشى ورجلاه تتخاذلان . وأبى ان يسلك الطريق العام لئلا يهتدي اليه حماة النظام . وتألبت عليه الأشباح الرهيبة . فاذا وقع في اذنه حفيف تراءى له ان جحافل الامن افلتت جميعها من ثكناتها للقبض عليه

*

ظلت الخمارة مفتوحة الابواب حتى متنفس الفجر والانوار تضيئها . وتعجب حارس الليل من هذا السخاء في التنوير فوقف بباب الخمارة يصيح : اين انتم ؟

فلم يجبه احد . فدخل الخمارة يبحث فيها عن مخلوق فلم يجد بشراً . وكان يجهل كهف الحوانيي فلم يمش اليه ، بل اطفأ الانوار وختم الباب بالشمع الاحمر . واقبل لدى طلوع الصباح صاحب الخمارة وادهشه ان يختم باب خمارته . وأسرع الى مخفر الامن يستطلع الخبر . فروى له رجال المخفر ما حدثهم به حارس الليل . وفتحوا باب الخمارة وصاحبها ما يزال مبهوتاً . اين جبور ؟... هل سرقه وفرّ ؟... ودخل الخمارة يبحث فيها عن خادمه فكاد يدوس جثمان المرأة المشتغلة لديه فارتاع وصاح : ماذا ارى ؟

ونادى رجال الامن فأقبلوا . وُذعر رب الحانة وتولاه الارتجاف . هل وقعت في خمارته جريمة ؟... ومن القاتل؟... جبور ، جبور دون سواه . هذا هو الاسم الواثب من شفتيه والمندلع من ذهنه . فانهم عفواً جبور عامر بالجريمة . قتل وفرّ . والا فمن هو المجرم ؟... وُدعي الطبيب فنظر في حالة المرأة وأعلن انها لم تمت . فما تزال ممسكة على بعض الرمق . وعالجها ففتحت عينيها بجهد . قال الطبيب : ما بكِ ؟

فاستطاعت ان تهمهم: جبور !

هذا كل ما وسعها القول. وعادت الى غيبوبتها. فجزم الجميع ان الجاني عليها جبور نفسه . واذيع النبأ في كل مكان . وتلقته المخافر في السهل والجبل . وفيما جبور يتسلق ضهر البيدر وهو يرتعش خوفاً وجوعاً فاجأه صوت جهير يصيح به : مكانك !

فجمد وقد انخلع قلبه. فهو تجاه دركي. وخطا اليه رجل الامن يقبض عليه ويقول وقد تبين بدافع الفراسة ان هذا الأشلّ، المرتعش القلب، مقترف جريمة الحانة في العاصمة: عرفتك. انت قاتل المومس . انت جبور !

*

لم يخدم الحظ جبوراً الا وقد تخضبت يداه بالدم . فلم تمت ابنة الحمارة وان يكن طعنها في خاصرتها طعنة ذهبت بصوابها، بل ظلت ناعمة بالحياة . وادركت الشفاء واستعادت قواها .

الا انها خسرت اموالها وهي كل ما استبقت لها فتوّتها من زاد. وكانت تكشف صدرها كلما تذكرت جناية جبور عليها وترفع باصرتيها الى السماء وتصيح من اعماق قلبها : لا وفقه الله !

ويوم بدا في قصر العدل اقبلت الى القضاة تلتمس معاقبته باقصى ما تجيزه البنود من شدة. ووقف جبور في قفص المتهمين ذليلاً ، مطرقاً ، دامع العين ، قائـــلاً في نفسه : ليتني بقيت في القرية احمل اكداس الحطب وارعى الابقار !

وتذكر كلمات جده وهو ينهاه عن العمل في بيروت. ولاحت له دنانير شامل الحاج فقال : لعنة الله عليها ، خدعتني وجرّتني الى المدينة المتصارعة فيها قوى الخير والشر ، فكان ان سلكت طريق الضلال وانا احسبه ارحب ، فانتهيت الى ما ينتهي اليه اسفل الجناة واللصوص !

واعترف بجريمته ورأسه في الارض. والخجل يكسفه . وودّ لو يلتفت الى ابنة الحمارة فيطلب منها المغفرة. على انه خشي ان يكون غفرانها شتيمة تقذفه بها. فبلع ريقه وجمع بعضه الى بعض وجلس في قفص المتهمين كتلة تسيل حرقة ومذلة . وحكم عليه القضاة بالسجن ثـلاث سنوات فلم يعترض ولم يتأفف وقد لمس في الحكم الرحمة ، بل انكفأ الى سجنه منحني الكتفين ، ممتقع اللون ، تتراءى له بيروت كريهة ، بغيضة ، كأنها مثوى الهالكين الخطأة

*

ثلاث سنوات في السجن طويلة كالابد

ولقد طواها جبور على ناتىء الرضراض، نادماً على جرائمه، متأسفاً على زمن فضاه في الآثام

ونمي الى اهله انه في السجن فما تحرك اليه احد. لا جده، ولا ابوه، ولا امه. بل ارتمى كل منهم في زاوية من الزوايا ورأسه بين يديه وفي صدره تتأجج الحسرات

وبدا المنزل في شبه مأتم. وأقبل ابناء القرية يؤاسون، وكأنهم يعزون بفقيد اودعته ديار الغربة الاكفان

الام بكت وبكى الاب. وما عفّت حتى عينا الشيخ سجيع عن النضح. فالنكبة فادحة. وليس المصاب الاعظم في حبس جبور ثلاث سنوات، بل في تلطيخ الثوب النقيّ بالعار. فالشيخ سجيع وقد بلغ الثامنة والسبعين ما يزال يعيش مرفوع الرأس. فمرّغ حفيده في الاوحال هامة عالية كالسرو، صلبة كالسنديان، جليّة كالافق الوضاء

وفي يوم من ايام الصيف، والشمس على وشك المغيب، تخلع على الافق حلة الارجوان الخضلة السنى، والشيخ سجيع يجلس على المصطبة القرفصاء، وعصاه بين يديه وقد القى اليها رأسه، وابو جبور وأمه يتوسدان البلاس المتعدد العيون، الصائر الى

الزوال ، ويفكران بذهول كأنهما في بحران ، وقف قبالتهم شبح يعلوه الغبار من رأسه حتى قدميه ، هزيل ، ضامر العود ، كهل اكثر منه شاباً . شبح محدودب الظهر ، مقوّس الكتفين ، اصفر كمن بلاه الداء ، غائر العينين ، لا شكل له ولا هندام ، فكأنه من البشر وليس منهم ، وقف ينظر كالمعتوه الى الشيخ سجيع وابنه وامرأة ابنه ولا يجرؤ على الدنو منهم ، ولا على الكلام . ظلّ واقفاً مكانه كهيكل من عظام يعود من الآخرة . فنظر اليه ابو جبور برعب وشاء الكلام فعقد لسانه . من هو الشبح المخيف ؟... وبدا الذعر في عيني ابي جبور . والتفتت الام وهي ترتجف الى هذه الرؤيا الرهيبة . وصاحت صيحة الخوف . وصيحتها اهابت بالشيخ سجيع الى الالتفات ، فسقطت العصا من يديه واتسعت عيناه ، وجرض بريقه واطرق وهو ينتفض ، وما لبث ان غمغم بدهش : جبور ؟... ولدي ؟... انت ؟

وكان يفكر فيه ، في هذه الشاة الناشزة المتباعدة عن القطيع وراع الشيخ سجيعاً ما يبدو له في ملامح حفيده من شواهد الندامة والمذلة والاسى . فادركته الشفقة وتوّجت دمعة نوّاحة خده اليبيس . وتلاشى حقده ونسي نقمته على جبور . وغفر دون ان تتمتم شفتا الحفيد كلمات الاستغفار . وفتح للعائد صدره . كان ضالاً فوُجد . فتحرك الشبح وارتمى بين ذراعي الشيخ سجيع وهو يختنق بعبرته . وبكى الشيخ بسخاء . وقال ودموعه تسحّ على رأس حفيده : جبور ، ولدي ، ما كان أغنانا عن بيروت . فالقرية

أرحم وأبرّ . عُد الى فأسك ومعولك ، فالحقل والكرم والغابة تبسط لك ايديها . ولتنس الماضي على تعسه ورجسه . وقع في اذني كل ما انتابك من ملمات . ليتك اصغيت الى نصائح جدك . جدك لا يلقي الكلام جزافاً . واولداه !... دعني أضمك ملياً الى صدري واغسلك من أدران المدينة . نحن لم نخلق لبيروت يا جبور !

وجرى الدمع على خدود الجد والاب والام والحفيد الملتاعين الفرحين . وايقن جبور ان القرية اشفق واحنى ، وان بيروت ليست لمثله ، بل ليست لمن يسلك الطريق الاعوج ، والطريق الاعوج يقود الى الهلاك . وعاد الى حراثة الحقل ، والى اكداس الحطب يقطعها من الغاب ويحملها على ظهره الى التنور . ونسي الماضي الفاحم وعاش لغده بعيداً عن الساخرين الشامتين . واذا سئل : « كيف رأيت بيروت يا جبور ؟ » سدّ اذنيه كأنه لم يسمع ، بل كأنه لا يريد ان يسمع . فما لقي في بيروت حرمه الابتسامة طول دهره ، وطعنه في كرامته ، ومال به الى هجر الناس ، ووخطه بالمشيب ، وقوّس ظهره وهو لا يبرح في العنفوان

وبات لا يفكر في اقتناص الثروات ، ولا في بناء دار كدار آل جنبلاط في المختارة وقد نزع الى الحقول والغابات ، يحصد ، ويزرع ، ويجمع الحطب . واذا تمثل له الماضي الراعب تململ ، وزفر ، واندفع في الحقل او الغابة يجاهد في ان يخلع عنه ذكرى الامس المهيضة ، المخجلة ، وما وقع فيها على سوى خزي وعار !

عاد رزوق من اميركا !

– سميحة، يا سميحة، سميحة، قومي يا حبيبة أمكِ وانشري الغسيل على قضبان التوت . طلعت الشمس ورجعت الصبايا من غدوتهن الى الحقول والكروم !

ولكن سميحة ما انفكت تنام. فألقت رأسها الى وسادة من الصوف ، والتحفت بغطاء من الكتان الابيض يردّ عنها لذعات البعوض ، وقد اخفت تحته وجهها وشعرها ، فبدت كتلة بيضاء مطروحة في أرض العليّة، تتململ احياناً فتدل على ان الحياة تتثاءب فيها ، وتجمد فتبيت كأنها صخرة جاثمة في مهواة .

أتكون نائمة ؟.. لا . فهي تحلم . وفتحت عينيها للشمس ثم اغمضتهما كأنها تميل الى الرقاد . وسمعت امها تناديها فتظاهرت بانها غارقة في الهجعة. فليست تطيق الازعاج وقد تاهت في رؤى من ظلال واطياف تقع فيها آناً على وردة، وآنا على شوكة، كأن الهناء الدائم حرام عليها . فما ان تتهادى على رياحين حتى تزلّ بها القدم فتهوي في ارض موحلة ونصيبها من الطين كل عميق القرار

وامها رفيقة بها وهي وحيدتها . هذه بركة البيت . كان لها ثلاثة اخوة فماتوا الواحد تلو الآخر . ماتوا بالجدري يفصل بين الأخ وأخيه اسبوع من الزمن . فكأن الموت بسط جناحيه على البيت الهانىء ففجعه بثلاث أزهار وعفّ عن سميحة . وابصرت

الأم ثلاثة توابيت تنأى عن العتبة لتزف الى التراب النهيم ثلاثة أقمار لوامع تولاها الافول وهي ما تزال اهلة ، فأغمي عليها ثلاثاً وانطبع مدى الابد ضميرها باللهفة . وتعجبت من نفسها كيف عادت الى الحياة بعد الفواجع الهاصرة. أتكون حطبة يبوساً لا حس فيها فيموت ابناؤها ولا تلحق بهم الى القبر ؟

وظلت لها آخر رصاصة تحارب بها لؤم الدهر. فتوفرت على تمهيد سبل النعيم امام الفضلة المنسية ونفحتها بكل ما تشتهي من ثياب وحلى. نفحتها بالاساور، واقراط الذهب ، ومناديل الحرير، والاحذية اللمّاعة . وباتت تغار عليها حتى من نفسها ولم يبق في الكرم غير الخصاصة !

ومات الزوج منذ سنوات رحاب عن تركة لا غبار عليها تخضد جور الزمن . فخلّف بيتاً وحقلاً وكرماً. وغلة الزيت وحدها تدفع عن سميحة وامها عضة الشقاء . واذا صدق الموسم كان منه للوارثتين وازن الجدوى . فتستقر الدنانير باعماق الكوارة كما يرسب الزيت في احشاء الحوابي والآبار .

والمرحوم ، واهب الخير الدهاق ، كان محسوداً في القرية . والحسد ينتضي سلاحاً باتراً وان يكن خفياً . فيقتل بعينيه المسونتين ان لم تسعفه في القتل يداه وما يطمع في سوى البطش على مقت ورثاء. فينطق بالاماديح ويحبس في صدره شهوات الافناء. فذهب بالاب وبثلاثة من الأولاد ، وما أمسك عن سوى ابنة

ضعيفة، لولا ارث ابيها لكانت من اولئك الملفوظين الانكاد. تسقط اليهم الف كلمة قارصة قبل ان ينعموا حتى بساخر الابتسام

ووالدة سميحة ما انفكت تترحم على زوجها المسكين. مات وحرم نفسه كما حرم سواه دعة الخاطر ولين المتكأ. انه لظلم قهّار. واطلقت الارملة من صدرها المكروب دامي الزفرات. فاين العدل في الكون ولم تقع على سوى جمرات العدوان ؟

وما زال يثور في عروقها دم الحرقة. كان المرحوم من ابناء الحلال، مسماحاً، قوي الاعصاب. اذا غضب فلا يلبث ان يرضى والقهقهة تتلو فيه الزعقة. خفيف الظل، رضيّ الطلعة. واذا عابت امرأته عليه اريحيته الشاحطة غرق في الضحك وقال: ما دام في معجننا رغيف يزيد على الحاجة فهو من نصيب كل لائذ بنا. ولو اضطررت الى مبيع قميصي كي أصون فقيراً من المسكنة لطرحت القميص في سوق الدلالة وأغثت ببدله طالب الرفد !

وهذه الاقوال الراشحة بالجود رددتها الارملة وهي الى طبق الغسيل كأنها تسمعها تتساقط في اذنيها. وتذكرت ابناءها الثلاثة وقد ملأوا البيت اغاريد، وسدوا عرض الازقة بألعابهم ووثباتهم، فابتهجت كأنها ما تزال تراهم بعينها، الا ان البهجة غارت حثيثاً لتعقبها الحسرة وقد تمثلتهم يخطفهم الموت الباغي ليودعهم القبر غير راحم نداوة،

ولا رائف بحنو أم. فتمنت لو ذهبت فداهم وما النفع منها وقد نأى من يرجى منهم كل نفع ؟

وناحت . وارتفعت امامها كدسة الثياب المغسولة فنادت ابنتها كي تنشر الملابس البليلة على اغصان التوت . ولكن سميحة ، ابنتها، لم تشأ ان تسمع . فهي في العليّة مسترسلة الى حلمها الندي وغطاء الكتان الأبيض يحجبها عن كل عين

وبماذا تحلم سميحة ؟... ليست مضطرة الى البحث عن قوتها والقوت، والف شكر لله ، موفور . وليست مكرهة على رعي الابقار وحمل الاثقال وكل ما عليها ان تملأ الجرة من العين، وان تساعد أمها في الطبخ ، وان تكنس البيت ، وتخيط الثياب . وهي شؤون لا تضني جسداً ولا تقلق بالاً . وسميحة كانت تتولاها دون تذمر او امتعاض وليس في معظم القرى خادمات والجميع يديرون أمور البيت بانفسهم .

على ان سميحة تحلم، فبماذا؟... انها لتتخيل من ينبض سرمداً في أجفانها وتنعقد عليه اهدابها . فلم تنس رزوقاً ابن عمتها. وزاد في تفكيرها فيه انه اهدى اليها اخيراً رسمه من اميركا. وكتب تحت الرسم « الى الحبيبة سميحة » . وشغلتها كلمة « الحبيبة » . ابن عمتها يهواها. فطفح قلبها بشراً واملاً. وحملت الرسم تشخن فيه العين وتقول في متعة من نجوى: كم هو جميل. شعره جعد. وجبينه عريض. وعيناه جذابتان تحدقان اليّ وكأنهما تدعوانني

اليه. وكيفما التفتّ ابصرهما ترمقانني بشوق. أترنوان الى الجميع كما تسددان اليّ النظر، ام تحدجانني وحدي ؟ . . . وخداه ما ابهاهما. ممتلئان. مصقولان. لا حفر فيهما ولا تلال. وفمه صغير. وانفه مستقيم، لا ضخم ولا أفنى. وشارباه رقيقان لا يكاد يظهر لهما غير ظلال شبه ممحوّة. ورانت على شفتيه بسمة العذوبة والحنان. اراه في صبوة البنا، بل اليّ !

ورزوق بات مستقر خاطرها. فتذكرت ايامهما معاً في الحقول، والكروم، وعلى سطح البيت امام العليّة، وفي غابة السنديان وكان رزوق يجمع منها اعشاش العصافير ويلقيها الى سميحة بما تحوي من بيض وفروخ. وما نسيت ايام كانا يسرقان الحصرم والمشمش الفجّ فيقبل اليهما الناطور صارخاً شاتماً. ومخافة ان يدركهما، ويصيب سميحة من شره اذى، يستسلم اليه رزوق راضياً بلطماته وضربات عصاه الطويلة الغليظة، على ان تنجو سميحة من فظاظته الطاغية المتباهية بالقسوة والعدوان.

واستعادت الماضي بكامله. كيف كانا يمثلان دور العروسين. سميحة تزف الى رزوق في حفلة حافلة من الاولاد الصغار وأكبرهم لا يجاوز العاشرة. وكيف يعلو الضحك والزواج يُعقد، واكاليل الافحوان تطوّق الرؤوس. ويقوم احد الغلمان بمهمة رجل الدين ويحمل الجميع الشموع. وتعلو الاهازيج. وينقر أحدهم الدفّ وينشد الآخرون اغاني الفرح. ويدوم المشهد طويلاً. واتفق

ذات يوم ان القرية على بكرة أبيها اقبلت تشاهد العقد البهيج .

ووالدة سميحة اخذت ترنو الى الموكب وتضحك. واغرورقت عيناها. فسرّها ان تكون ابنتها لرزوق وهو ابن عمة سميحة . ورزوق مع كونه صغيراً يعد بمستقبل رغد . فلماذا لا تكون ابنة خاله امرأته وهما يتفقان ذوقاً ومكانة ؟

وما تزال سميحة تذكر ما خاطبتها به امها وهي تراها تبكي. قالت الابنة: لماذا تدمع عينا امي؟... أيؤلمها ان نتوفر على هذه السلوى المرحة ؟

فكان جواب الام ان قبلت رزوقاً في خده وسميحة في جبينها وقالت وهي تشرق على رغمها بدمعها: ابكي لفرط سروري يا ابنتي ولست اشتهي سوى تحقيق الطلبة !

ولم تدرك سميحة في ذلك الحين مدى كلمات امها . على ان المغزى تجلى لها اليوم . امها تريد لها ابن عمتها زوجاً ينفحها بقلبه وبعمره . ورزوق ابدى مراراً انه لا يعرض عن الامنية وما انفكت شفتاه تهمهمان التلميح. ولما زُفت شفيقة مخيبر في حمانا الى نصيف الاشقر كان رزوق وسميحة بين المدعوين . وامسك رزوق بيد ابنة خاله وضغطها بحجماً : واشوقي الى هذا الموقف المغبوط يا سميحة !

وضحكا معاً. وطفحت الاعين بالهوى النامي في القلبين الفتيّين. وانقضى ذلك النهار سريعاً، سريعاً، كأنه لمحة وهو يوم مسرة.

وباح رزوق ببعض ما في نفسه معالناً سميحة انه يرجو ان يُعقد له عليها ، واذا لم يكن ابوه غنياً فلن يدخر وسعاً في كسب المال وما عدم الهمة. فيهاجر الى اميركا لدفع الحاجة وفي اميركا ذهب يكسو الارض. فليس لليد الا ان تنزل لالتقاطه وان تقوى على حمله. وما هو عام، او عامان، حتى يعود في سفينة جؤجؤها من الذهب وصواريها من المرجان، والبشرى عند ذاك لسميحة السمينة الرجاء !

ولقد آلمها ان تسمعه يتحدث عن المهاجرة. ولكن اباه فقير وهو ذو مطامع عراض. فما يبتغي الا ان يمسي من أكابر اغنياء لبنان ومن اوفرهم جاهاً وشأناً. فيقبل اليه حتى الرؤوس لاستشارته في امورهم وليس لهم ان يتحركوا بسوى اشارة منه . وغمز بسادة القرية. فليس الأمير الراتع في صرحه في قمة الضيعة من جبلة انقى ، ولا يملك عقلاً ادهى. ولكنه ابن « المير » . ابوه خلع عليه اللقب فورثه كما يرث الفقير القلة، والغنيّ جيباً وارماً ودماغاً يهنأ بالفراغ الرحيب

و «البك» من هو في عرف رزوق القاطع اللسان ؟.. رجل طويل الشاربين، طويل القامة ، عابس الوجه، ينظر الى من حوله نظرات الدلّ والتيه ، ويرقب منهم الانحناء ازاءه كأنه عاصفة صاخبة تجتاح الاغصان والاشجار فتلويها وتقتلعها . اما جهده فمقصور على الكيد والانتفاخ، ومعرفته لا تزيد على القراءة وتوقيع

امضائه بعياء. ويلوك بضع كلمات أعجمية ليس من يدري كيف حفظها – ويا للهتيكة وهو يفيض بها ! – وقد كان على مقاعد العلم مثال البلادة والغفلة والجبن. وكم من زائفين في هذا اللقب وقد اغاروا عليه اعتسافاً . فاما انتقل اليهم من آبائهم ارثاً كما انتقل اليهم الفرس والحمار والثوب الاسود البالي ، عدتهم في الاعراس والمآتم وفي الاستئذان على رجال الدولة، واما اقتنصوه جزافاً من افواه جماعة من المهووسين. وانهم ليحرصون عليه حرص الشحيح على اللقمة . ويرفعون به جباههم كأنهم من ارباب الجلالة. ويسيرون في الطرق بصدورهم الرحاب ليقع في آذانهم هتاف الهاتفين : « عاش البك ! » ، وتحية المتزلفين أو الساخرين : « نهارك سعيد يا بك ! » . ورزوق كان يحتقر « بك » الضيعة ويجاهر باحتقاره له . ولكن اي اذن تستمع لرزوق وما يبرح في معرض النباهة والثراء دون «البك» العتيق الثوب والشارب والخضاب

والشيخ لم ينل رضى رزوق. فهو سارق اموال القرية. يظهر الحمية ونفسه مفطورة على الخسة . فالاصلاح عنده ملء جيبه واشباع بطنه . يبدو على مرأى من الناس رفيقاً، دمث الخلق، تقياً ، على حين ينفث السم ليقتل به كل حيّ . فلا يرهب غير القوي ، ولا يكرم سوى ذي السلطان ما دام ذا سلطان . فكيف يرضى رزوق عن رجل مراوغ، منافق، لا يقرّ له قرار؟

وتعبت سميحة في ان تثني ابن عمتها عن المهاجرة فلم توفق. فهو يميل الى الرحيل ، الى جمع الذهب وامتلاك المجد . ففي اميركا من النضار بقدر ما في لبنان من الصخر والتراب .

وفي يوم أعمش ذاع في القرية ان رزوقاً ازمع ركوب البحر الى العالم الجديد . فاكره اباه على مبيع كرم الزيتون وتقاضى منه بدل السفر . واندفعت سميحة الى منزل عمتها تستوضح الخبر فراعتها صحته . فصاحت بلهفة : أيرحل رزوق؟

وجاول الدمع عينيها. فقالت عمتها وعبراتها لا ترقأ: سيرحل يا ابنتي . . . وفي صباح غد !

فخنقتها الغصة وماعت في النشيج. ورمقها رزوق من طرف خفيّ وهو بين ابناء القرية المقبلين لوداعه فاشفق عليها . أيبقى لاجلها ؟ . . . ولكن مصلحته في الرحيل. وفتح لمخاطبيه اذنين غير سامعتين ونظر الى سميحة بتأثر والتياع . وتكاثرت العجائز المتهاديات اليه رعياً للعرف . جئن يقبلنه وهن يشرقن بدموعهن المتكلفة الانسياب على عرض خدودهن قائلات باكتئاب ونواح: التوفيق في السلامة يا ولدي !

ومنهن من وقفن بين يديه جازعات، ناحبات، يغمغمن القول المكلوم : رزوق ، سندي ، اذا اتفق لك ان تبصره هناك فاطلعه على حالتنا . ابلغه ان اولاده يقضون الليلة تلو الليلة يتحدثون عنه، ويسألون هل من أب لهم يعطف عليهم؟... وان

يكن هذا الاب حياً يرزق فاين هو ؟ . . هلا عاد اليهم ؟ ... واذا لم يقوَ على المجيء فلماذا لا يكاتبهم ؟ . . . ابلغه اننا بتنا نشتهي القرش وقد اخذنا نجهل لون الرغيف !

هؤلاء من غاب عنهن ازواجهن وتناسوهن واشاحوا عن الاولاد . وجهلت المسكينات ان رزوقاً يشخص الى بلد آخر لا يقيم فيه ازواجهن، وان الدهور قد تلتقي في حفرة التلاشي ورزوق واولئك الازواج لن يجمعهم لقاء. فهو يركب البحر الى الارجنتين في اميركا الجنوبية ، على حين يقيم ازواجهن في افريقيا او في استراليا او في اليابان .

وودع رزوق أهله والفجر يتنفس . ووثبت عليه امه تقبله وتروّيه بدمعها . ومشت وراءه حتى آخر القرية تدعو له بالسلامة والرغد وتطلب اليه ان لا ينساها. قالت وشوقها اليه يستطيل: امنيتي الوحيدة ان اراك قبل ان تفيض الروح !

ورافقه ابوه الى بيروت. وهناك، في اطراف القرية، مشيّع آخر يذرف الدمع وينوح. هو سميحة. على ان الفتاة اجتهدت في ان تحجب نفسها عن الانظار لئلا تزيد في آلام ابن عمتها في طريقه الى ما وراء البحار . فلا بد ان يختلج حرقة وهو يبصرها في اعوال فيحمل الى العالم الجديد قلباً مثقلاً بالاشجان .

واقامت على مقربة من صخرة ناتئة جوفاء تتبع بعينيها الحمراوين لفرط البكاء آثار رزوق وهو يتدحرج في الوادي

وابوه بجانبه . فتمسح بمنديلها مقلتها اليمنى لتعود به الى اليسرى فيرشف بنهمة ما تنثران من حبات كاللآلىء اليتامى لو هي تماسكت على تمام

وركب رزوق البحر الى العالم الجديد وغده يلوح لناظريه كالعروس المجلوّة ، برّاقاً واعداً . ولم يكن يلتفت الى البحر المتلاطم حوله ، ولا الى المودعين ، بل الى الافق وقد اخذ يسائل نفسه عن مدى فلاحه . أيعود وفي الجيب ذوات وهج ورنين ؟

وتناسى الجميع وقد امسى على متن الباخرة ، اباه وامه ، وانسباءه ، والقرية ، والحقل ، والقطيع . وما جالت في خاطره سميحة الا لماماً . وهو لا يطمع في سوى الوصول . الوصول عاجلاً والكسب سريعاً. فيحطّ ، ويحشد ، ويعود سيداً من سادة الوفر والجلال .

ولم يكن يعرف في الارجنتين احداً ، ولا شاقه ان يتعرف الى احد. سيعبّد طريقه بيديه . ومرّ بالجزر والشواطىء فلم يكترث لها كأنها سحب من الدخان في فوهة اعصار . وما وقف ازاء المرافىء الكبرى يمتع بها عينيه . فهو سائر الى الارجنتين وكل ما سواها غبار لديه .

وسميحة ، فيما ترقد في العليّة ، وقد حجبها غطاء الكتان الابيض عن الانظار ، كانت تفكر في هذا المعقود الضمير على

المجد ، الباني لنفسه . ووردت على القرية الاخبار ان الثروة شغفت به . وكتب الى اهله يحدثهم عما اصاب من نجاح . وما نسي رسومه يتحفهم بها وقد ارتدى اجمل زيّ . وتألقت في صدره سلسلة الذهب الغليظة . وتلألأت في أصابعه خواتم الماس . وما اكتفى بالرسوم يهديها الى والديه ، بل اضاف اليها مئة دينار ذهباً ملأت جوانحهما سروراً ، فنودي به في القرية ، في الساحة ومن فوق السطوح ، اميراً من امراء المال . واقبل الجميع الى المنجب البطل . وهزجت الام كأنها في عرس . رزوق بات يملك الالوف !

والنجح يغري . فتاق العديد الضخم الى الاقتداء بالموفق المبرور . واشتاقت الفتيات عودته وكل منهن طمعت فيه . على ان سميحة لم تبقِ مجالاً لسواها . فما وقعت على رسم رزوق وقد كُتب فيه : « الى الحبيبة سميحة ! » حتى طافت في القرية تعرضه على النساء والفتيات قائلة لهن : انظرن ما كتب لي تحت صورته . « الى الحبيبة سميحة » . لتقبرني طلعته ومودته . ما ينفك يراني احب الناس اليه !

فبلعن ريقهن غماً وغيرة وكل عازبة فيهن اشتهت ان تظفر برزوق . ولكن رزوقاً يريد ابنة خاله الراقدة في العليّة بامان ، الغنية ، الغريرة ، الولهى . وما يمنع ان تكون له ويضاف المال الى المال ؟

وسميحة انتفخت زهواً وقالت باعتداد : لن يجد في القرية افضل مني . فلا تشحذ ذوات الغرور انيابهن وسينكفئن على حسرات !

ولكنها خافت ان يعود رزوق من المهجر شديد الاعجاب بنفسه ، فلا ترضيه القرية ولا بناتها . . . حتى سميحة . فقلقت واوجعها الخاطر المضّ . فليس من العجيب ان تتبدل آراء رزوق ان هو اثرى وعاد الى لبنان سيداً من سادة المال والمقام.

*

— سميحة ، يا سميحة، سميحة !... ألا تنهضين ؟.. انا تعبة يا عين امك ، هلا خففت عني ؟

والتعب حلّ بالأم وهي جاثمة منذ طلوع الصباح الى طبق الغسيل . ولم تشأ ان تدعو ابنتها المغناج الى مساعدتها ، ولا الابنة المغناج رفقت بامها. فغاظ الام اعراض ابنتها عن اسعافها وصاحت بها غاضبة : ألا تشفقين عليّ ؟

فنفضت سميحة عنها الغطاء وهبّت الى والدتها وهي تبتسم ابتسامة الملاطفة وتقول : رويدك ، لقد جئت !

ومشت الى الثياب المغسولة تنشرها على قضبان التوت في الحقل الممتد امام المنزل. وظلت تحلم برزوق وهي تنشر الغسيل. ونشرت قطعة سقطت الى الارض دون ان تشعر سميحة

بما بدر منها . ولاحظت عليها امها ذهولها فرشقتها بصيحة حادة، قارصة ، اعادتها بها الى هداهـا : ابن انتِ ؟ . . . خزى الله الشيطان !

فاحمرّ وجهها حتى كأنها شظية من ياقوت . وجمجمت باستحياء: ما ينفك النعاس يسيطر عليّ ، فسامحيني!

واقبلت تساعد امها في الغسيل قاعدة القرفصاء بجانب الطبق. واذا بهما تسمعان وقـع خطوات . هذه نوريّة تطلب الصدقة . نورية سمراء كالفجر الالمى ، يعلو وجههـا الوشم المزخرف كأن محياها منديل حالي الوشي. فمن خناجر وسيوف ورؤوس وتيجان وازهار . اما قامتها فهزيلة، ملساء ، لا صدر لها ولا بطن ولا ردف ، كالعصا المتساوية القبضة والعقب . وتمشي بسرعة كأن في رجليها رقّاصاً يشدّ بها صُعُداً، فلا تتعب ولا تملّ بل تجوب العالم كأنه يُطوى لديها في لمحة

والتفتت اليها المرأتان بامتعاض كأنما تدعوانها الى الانصراف. وقطبتا تنتهرانها. ولكن الوقحة ما تبالي العبوس والطرد وقـد تعوّدتهما ، وهما نصيبها في كل خطوة ، كأن لعنة الله المكتوبة في جبهتها وهبت لها صفاقة التماسيح

وبسطت يدها للسؤال عفواً : حسنة لوجه الله !

والتماس الصدقة يجري ابداً على مقولها . وتبرمت بها الام فهتفت بابنتها : انقذيني منها يا سميحة وجودي عليها برغيف !

فرضيت النوريّة عن الطلمة ودعت بطول البقاء . على ان الطمع اهاب بها الى الفوز بالاوفر . فتحدثت عن مواهبها في معرفة الغيب. بصّارة ، برّاجة، تكشف البخت. قالت والحنين الى الابتلاع يتلظى في عينيها وشفتيها : لكما ان تستوضحاني ما يحلو لكما . فالغيب والغد ينبسطان بين ايديكما بجلاء ، كأنكما تعيشان فيهما !

ففكرت سميحة في رزوق وقالت تستنبىء النورية : أتقوين على معرفة النيات والتحدث عن الغيّاب ؟

فابتسمت النوّرية ابتسامة الاعتزاز بضلاعتها . وقالت وهي تستنشق رائحة المال فتسترخي له بفائر جشعها : كل ما تطلبين مني ابلاغكِ اياه لا يعوقني عنه علمي وسحري !

فاطالت سميحة النظر الى امها كأنها تستوضحها ما تفعل. قالت الام : أتريدين الوقوف على اخباره ؟

وحزرت ما تبطن ابنتها . فهي بشوق الى اخبار رزوق . ونشرت النورية بضاعة الشعوذة وقد تناولت من صدرها قبضة من الصدف وطرحتها في الارض . وامسكت بيد سميحة تتبين خطوطها وتقول : ما اسمك ، اسم الله عليك ؟... سميحة ؟... عاشت الاسماء. ايامك سعيدة وحلوة يا اختي يا سميحة ، وحظك احلى. اناسٌ يحبونك واناس يسبونك. على ان من يسبك يتقاصر عنك، فاشكري الله. لك في بلاد الغربة احباء يشتاقون لقاءك.

احباء يرفعون الرأس، اشراف، ويفكرون ابداً فيك، ويكتبون اليك الرسائل ويشتهونك . وسيبقون على عهدك . قولي : ان شاء الله !

فسددت سميحة الى النوّرية نظرة لا تخلو من الدهش تريد بها القول : انى لهذه المخلوقة الجاهلة معرفة الاسرار ؟

ورددت ما طلبت منها البصّارة ترديده فقالت: ان شاء الله!

فعمدت كاشفة البخت الى الصدف تجمعها وتطرحها مرة اخرى في الارض وتقول : بل هناك عينٌ تبسم لك وتدعوك اليها. وفي هذه العين يلمع الاخلاص، الا ان الاعداء سيحجبونها عنك بما يسدلون عليها من غشاوة ، فتتنكر لك وتسلوك، وربما طال السلوان ، الا ان القدر سيعيد اليك الصفاء فلا تخافي ، بل قولي ان شاء الله !

فارتجفت سميحة وقد نقرت فيها البرّاجة وتر الوجع ترض به ضلوعها ، ونبرت بخوف : أتتنكر لي وتسلوني ؟

فهال النورية ان تثير في روح الفتاة الجزع وعادت تستشير الصدف في ماعالنتها به. وقالت لا تخرج عما ألهمها اياه علم الغيب كأنها تأبى التفريط في الكرائم المنزلات: لم يتبدل منطق الصدف. امامك ايام ترح وايام مرح . ولكن السعد حليفك في انقشاع الكدر. فليس لك ان تخشي شراً مهما تجهم لك الزمن. ومن يخفق له قلبك لن ينتزعه منك مزاحموك . قولي ان شاء الله !

ورتقت بعض ما فتقت. فاضطرت سميحة الى التماس مشيئة الله . ولكنها طمعت في ان تلمّ بما سينتابها من حدثان . على ان النورية كانت قد اخفت في صدرها الصدف ورقبت ان تجود عليها سميحة بما يتيسر . فنهضت الفتاة الى صحيفة ملأى بالتين اليابس وغرفت منها حفنة عامرة . ومالت على صحيفة ملأى بالزبيب وما رفقت بها. فحملت منها حفنتين الى النورية المقيمة بالانتظار. وما اكتفت بهذه العطية بل عمدت الى معجن الخبز واستلّت منه ثلاثة ارغفة ملأتها بالطبيخ والتين المعقود بالسكر ونفحت بها كاشفة الغد . فكررت النوّرية الدعاء بالاقبال والمسرة . غير انها ابت ان يضيع عليها الوقت . فما دخلت سميحة المنزل حتى كانت عينا النورية تبحثان عما تمد اليه اليد . ولفتهـــا الغسيل المنشور على قضبان التوت والدجاجات السارحة في الحقل ، المتهادية الى المنزل، وأمضّها ألا تقوى على السرقة ووالدة سميحة بجانبها فنظرت اليها تقول : الدجاج ملأ البيت يا خالتي !

ووثبت ام سميحة الى البيت تطرد منـه الطيور الدواجن فوثبت النورية عـلى الغسيل تخفي منـه في ثيابهـا ملحفتين وقميصاً. وعادت الى مكانها كأنها لم تأت نكراً . وتناولت عطية سميحة وتوارت باسمة قائلة في سرها : مـا أسخف عقولهـن . يصدقن كل ما ألقي في آذانهن . مع اني لا اتلفظ بسوى كلمات واحدة اردّدها للجميع . ومن اي مورد نعيش اذا مالك الناس

عقولهم وباتت الشعوذة بضاعة لا تروج ؟

وتابعت طريقها بخفة باحثة عن رزقها ، متهالكة عليه من كل وجه . وجلست سميحة بقرب امها تقول لها : هل سمعت ما صارحتني به ؟... قالت ان رزوقاً لي وحدي. فيا للبشرى !.. سارتاد في هذا المساء كنيسة القرية اضيء فيها شمعتين للعذراء ولابنها . وساصلي لله كي يدفع اليّ في اقرب آن رزوقاً وقد اصبحت أتأجج شوقاً اليه. طالت غيبته يا امي . ولن اكتفي بالشمعتين أضيئهما ، بل سأطوف القرية حافية ، اجمع الزيت لاضاءة رسوم القديسين !

فصاحت بها امها : لا تنسي الفقراء . الفقراء قبل القديسين . فالقديسون يجدون من يهتم بهم . اما الفقراء فمن لهم يرد عنهم كيد الدهر ؟

قالت : صدقتِ . سأوزع خمسة ارطال من الخبز على فقراء القرية واطلب منهم ان يضرعوا الى الله كي يلهم رزوقاً العودة وشيكاً الى لبنان !

وفي مساء ذاك اليوم كانت شمعتان طويلتان تتقدان في كنيسة القرية . احداهما امام هيكل العذراء والاخرى امام مذبح قلب يسوع . وبين الشمعتين سجدت فتاة تقرع صدرها وتصلي بحرارة وايمان . هذه سميحة . وظلت تصلي حتى انطفأت الشمعتان وقد ذابتا وهما ترتجفان كأنهما تشعران بعضات النار.

وخرجت سميحة بخشوع بعد أن قرعتْ صدرها الف مرة وقبلت الارض الف مرة . فطلبت الى السماء ألا تحرمها الشهوة الماتعة. فيرجع رزوق ويُعقد له عليها . وهذه الامنية الوجيزة في حد نفسها استنفدت بليغ الوكد. ودخلت سميحة حجرة الاب سمعان القائمة فوق سطح الكنيسة تشتري منه ثلاثة قداديس يقفها على غائب ترجى عودته. قالت: ولا تنس مرة «ابانا» ومرة «السلام» يرددهما في كل قداس المتعبدون الصالحون لاجل تحقيق البغية العذبة يا ابتِ الجليل !

والاب سمعان،وهو ممن يرتاحون للمال تغرق فيه يداه ويملأ جيبه، تناول النقود شاكراً واودعها كيسه البطين وقال: كوني على اطمئنان يا ابنتي يا سميحة . سيعود الغائب بامان !

وكان يجرع كأساً من الخمر فرفعها الى شفتيه وقال: دعيني اشرب نخب التقيات نظائرك، القادرات قدر الاب سمعان الصافي الطوية، الطاهر الثوب . لبس الجبة والقلنسوة يا ابنتي لا يكفي كي تمتلىء الخابية نبيذاً والمعجن خبزاً . فاذا لم تتحفنا العناية باخوات لك عضضنا لساننا سغباً وعطشاً !

وانصرفت سميحة مزودة بركة رجل الدين السخيّ برحمة الله . واعتزمت ان تجول في اليوم التالي في القرية فتستجدي الزيت لتضيء به رسوم القديسين . فلا بأس ان تجمع بين رغبة امها وشهوة ضميرها فتأتي المبرات من ابوابها جميعاً

وترضي الفقراء والاولياء . ونظر اليها ابناء القرية في بسط يدها للصدقات فقالوا متخابثين: في سبيل من هذا الاتضاع يا سميحة، في سبيل رزوق ؟

فخجلت ولكنها لم تستطع دحض الحق . لأجل عودة ابن عمتها اليها كل ما تبذل من مرهق السعي. وأضيئت رسوم اتقياء الله. واكل الفقراء ودعوا برجعة رزوق. فانشرح صدر سميحة. واخذت تعدّ ما فصلها عن الغائب من الايام. برح القرية منذ عشر سنوات في موسم الزيت والزيتون . وفي اثناء هذا الزمن جاءها الطلاب بالعشرات وكلهم من ذوي الوجاهة في تلك القرية اللبنانية النائية عن العمران، والطامعة في كل عمران. الملتفّة بالغابات كأنها طاقة من الزهر في اناء اخضر، والقائمة على رأس جبل كأنها المنارة. الحريصة على عاداتها حرص الشحيح على الدينار، والآكلة لقمتها بهدوء، ولكن ليس بقناعة . فالقناعة في عرفها ابنة الاضمحلال .

والقرية في ناحية المتن ، في صميم لبنان ، تعيش من غلة الصنوبر ومن جنى الحقل . ولقد انبسطت في قممها ووهادها اشجار الصنوبر عاليات ، متئدات ، تكسوها باطمئنان السعيد رداءً دائم الاخضرار لا تبلى له جدة .

غير ان ابناء القرية ما اكتفوا بالصنوبر يستغلونه ، ولا بالارض يحرثونها وينعمون بعطائها ، بل التمسوا الرزق في آفاق ابعد. التمسوه في ما وراء البحار. فهاجر منهم الى افريقيا واميركا

جيش جرّار وعاد بالمغنم الوزين . ومن هؤلاء من سأل سميحة مشاطرته ايامه. فرفضت وهي لرزوق ابن عمتها. والقرية بكاملها علمت ان هذا التراب لتلك الحفرة، فتحامى طلاب الزواج وورود منهل يضنّ عليهم بالانعاش الرويّ

واذا ما شاء ابناء القرية ايلام سميحة قالوا لها: «رزوق لن يعود!». فتغضب ويحمرّ وجهها وتستدير حدقتاها لشدة نقمتها وتبكي. ولو اتسعت يدها الى وجه من يقرصها بهذه الغلاظة لكان نصيبه منها اللطمة. ألا يعود رزوق ؟... ومن ترقب اذاً ؟... وفي سبيل من تقضي ايامها وقد كاد يتولاها الجفاف ؟

رزوق سيعود. هذا ما لا ترتاب به. سيعود ويتزوجها وتنعم واياه بالعيش المريء. قالت : سنحيا فماً الى فم وقلباً الى قلب. وننشد حتى الابد اغنية الحب الشجية النغم. ونموت والحب يختلج في جوارحنا . وليس للحب الخالد ان يزول حتى واهله في احشاء التراب. رزوق، رزوق، متى تعود الى من تقيم بالانتظار؟

ورزوق كان يكتب الى سميحة . على انه لم يبلغ احداً متى يرجع من ارض الغربة واليسار .

*

- سميحة ، يا سميحة ، سميحة ، هذه رسالة من اميركا يا روح امك . وصلت الى الشيخ فدفعها الينا. وعندي انها من رزوق. ومن لنا سواه يكتب الينا؟... اعاده الله سالماً لتقرّ به

اعيننا وتبتهج ايامنا !

وسميحة كانت تفكر في ابن عمتها . متى يعود ؟... كادت عشر سنوات تنقضي على هجرته. عشر سنوات طويلة كأنها قرن بسجون. قالت الفتاة متألمة حانقة: كنت في الثامنة عشرة لما نأى عني. وها انذا اليوم في الثامنة والعشرين. وغداً أمسي كالحطبة. فلا هو يلتفت اليّ ولا سواه . فيهجرني الجميع واذهب ضحية بخسة . أيضحي بي وعليه اتكالي ؟

وتولاها القلق . وعكفت على زهرة اقحوان تنثر اوراقها واحدة واحدة وهي تسائلها : « أيعود ام لا يعود ؟ ». فكان الجواب : « لن يعود ! » . فبرطمت سميحة وشعرت بوجع في قلبها . ولما نادتها امها تقول لها ان كتاباً ورد باسمها ركضت الى الرسالة ضائعة الهدى تريد الوقوف على مؤدى السطور.

وليست تجهل القراءة. فتعلمتها في مدرسة القرية تحت اشراف المعلمة ياسمين العانس، المبتهلة الى الله كي يجود عليها بمن يتزوجها فلم تظفر بطلبتها ، فخولط في عقلها وماتت مجنونة . وسميحة انصرفت بجد الى الدرس. وباتت تجيد قراءة الرسائل وكتابتها. الا انها تكتب كما تتكلم : « وما خايس علينا سوى قلة مشاهدتكم !». فما تحسن غير العاميّة . وهو كثير في قرية نائية يتوفر ابناؤها على استغلال الارض اكثر منهم على اقتباس العلم.

ووقفت سميحة مشدوهة ازاء الرسالة. فما تجرأت على فض

غلافها وقراءة ما فيها وقد خشيت ان تبلغها العبارات ان رزوقاً لن يعود . فنبرت امها متبرمة بهذا البطء : ما بك حائرة ؟

فاعلنت وقلبها في نبضة الفزع : يروعني ان أفضّها فتبدي لي عن كاسف المأمول !

– ولكن عليك ان تقرأيها !

فهي تتذكر نبوءة زهرة الاقحوان وترتعد . غير انها عادت فتذكرت اقوال النورية وابتسمت وفضّت الكتاب . النورية اصدق من زهرة الاقحوان الكذوب !

وتلت الكتاب وهي تميل الى الايمان بان ما ينطوي عليه يسرّها . وما خابت في ايمانها . ابلغها رزوق بكلمات تلمع في الطرس كالنجوم الزواهي في سماء هانئة المضجع ان موعد مجيئه قريب . فارتعشت لفرط غبطتها وضمت الكتاب الى قلبها وتمتمت شفتاها تعلنان البشرى : سيعود ، سيعود !

وهمى الدمع من عينيها يسبق لسانها في ابداء الفرحة . واستقصت الام بمستطيل الجذل : أيعود ؟

فعرضت عليها الرسالة وهي تجهل ان امها لا تعرف من القراءة الا انها حبر على ورق ، وما ترى فيها سوى دبيب نمل وانسياب اراقم . واستفهمت الام وهي تضحك : وماذا في هذه الرقعة ؟... هل جاءكِ اني احسن حل الرموز ؟

فاخذت سميحة ترقص وتقول : سيعود ، سيعود !

ورقصت في حقول التوت كالحابي الرشد وهي تردد كلمتها: « سيعود ! » كأنها تذيعها في الملأ . وشاطرتها امها بهجتها معلنة بحبور عريض : هنيئاً لك يا قلب أمك ، هنيئاً لك بابن عمتك. قادر ربي على مدّ ايامي حتى اطرب لطربك وازف الشمس الى القمر !

وغمرها الرضى . الا انها ودت ان تعلم متى يرجع رزوق . قالت : ألم يبلغك في اي يوم يعود ؟

فما اتسع فم سميحة للنطق واجابت باقتضاب : سيعود !

والبيان على ايجاز، الا انه يكفي . فنظرت امها طويلاً اليها تتبين وقع البشرى على هذه المشتاقة الظمأى وقالت في نفسها : فرحها يكاد يقضي عليها !

ونبأ عودة رزوق الى لبنان ذاع في القرية. فالرسائل وردت على الاب والانسباء وكلهم رقب اليوم الخطير . فالسيد رزوق مفخرة من المفاخر في قرية الصنوبر وقد اضحى سيداً مثقلاً بالمال . على حين لم يكن غير ضفدعة تنقّ وهو ذلك الاجرب .

وتذكرته الضيعة يوم كان يطوف فيها بسرواله الخشن النسيج، ومداسه المرقوع ، وابتسمت عن سخر مقهور وقالت تتأسى : سبحانه المعزّ المذلّ !

الا ان المجاملة تقدر مقاسمة الافراح . فاقبل المهنئون على سميحة يدعون لها باليمن ورزوق لها كالأرض لمشتريها. فما ينثني

عن العالم الجديد الا ليطرح بين يدي ابنة خاله كل ما جنى . وتفتحت عين الحسد. وودّت المتألمات لو غرقت الباخرة برزوق، فلا يبلغ القرية حيّاً . او ان يهيم على متن اليمّ بفتاة تروقه فينسى سميحة. فكيف يتزوج من لا تزيد عليهن شأناً ويدركهن النتن في الزوايا ؟

وكثرت الغمغمة. فاللؤم اندلع من كل نفس ينشر البغضاء. بل يكسر ويجبر كي يبدي صفاء السريرة . فتطلق يمناه النصلة القاتلة وتجود يسراه بالبلسم النجيع ، مع انه لا يبتغي الا المحق. ولكن الخوف من ان يذيع عنه الانطواء على الحقد والحسد يميل به الى الاحتراز ، فيحبو بين بين

والقرية تجود بهذا الرهط من ذوي الضعة وكل من فيها يعرف بعضهم بعضاً ، وهم يعيشون منذ احقاب متجاورين . فيؤلم معظمهم ان يجاوزهم احد اخوانهم نشاطاً وجاهاً . فلماذا يسعد هذا دون ذاك ، ويطرب ذاك دون هذا ، وكلهم يرجو لنفسه التفوق ولمن حوله القهقرة،او البقاء أبد الدهر في وحدة المستوى لئلا تشيل بهم كفة الميزان فيما ترجح بالآخرين

وتطايرت رسائل رزوق تنبىء بركوبه البحر من الارجنتين. فما هي خمسون يوماً حتى يطأ شاطىء بيروت . فهاج الطرب المجنّح سميحة وضاقت القرية بفرط اتساع فرحتها. فهي تضحك وتغني وتذيع في الحي والجماد مدى اغتباطها هاتفة : ما نسيني

فيا لسعادتي . سيقبل حاملاً اليّ الحياة وكادت تنأى عني بنأيه !

واخذت تعدّ الايام يوماً فيوماً . وفزعت الى القديسين تلتمس منهم ان ينفحوها بنعمة الصبر . واحيت في المنزل المآدب لتشبع البطون فترنم الافواه بمديح المقبل سعيداً . واضاءت الشموع في الكنيسة . وهفت الى الاب سمعان تطلب اليه احياء القداديس لاجل غائب يعود . والاب سمعان كان جالساً الى كأسه ، الى رفيقه الامين . فالوفاء يتلاشى في قلوب الجميع ما عدا في قلب هذه الكأس . وتقاضى الرجل الوفور بدل الذبائح ووجهه الاحمر ينتشي بخمرتين . فالراح انعشه والمال احياه

فاختر لبغداد غيري انني رجلٌ الراح يقتلني والعود يحييني

*

عاد رزوق من اميركا !

وهبطت القرية في معظمها مرفأ بيروت للترحيب بشبل من اشبالها يعود اليها بما يرفع رأسها . فالحمد لله على السلامة يا رزوق !

واطلت الباخرة من الافق جبلاً يمشي في الماء ، بل بركاناً سيّاراً يقذف من احشائه الحمم ويندفع الى الشاطىء فاغر الشدقين للنهش والالتهام . نارٌ على ماء ولا تنطفىء . اخشاب تشقّ الامواج عفواً بلا شراع ولا ريح . فالى اين يقود العلم ؟

واستطال ابناء القرية في اعلان اعجابهم بنفحات الحضارة وهم

يرقبون مجيء رزوق . رزوق الشاب الممتلىء الجيب ، الباسم الفم ، العريض الكتفين . برح القرية صغيراً ، معدماً، لا يشيعه احدٌ من بني قومه وقد جلا عنها في طلوع الفجر، ولا يرافقه الى بيروت سوى ابيه ، وها هوذا يعود اليها والمرحبون به لا يعدّون . كلهم يبتسم لرزوق قبل ان يراه وقد جاءهم عنه انه كتلة من ذهب متطايرة الوميض . وجهلوا ان هذه الكتلة من الذهب تتدحرج بخيلاء وأشر كأنها واهبة الارواح . فالوجود من صنعها والبشر نفحة من انفاسها . فما ان تصرخ بالعدم : « كن ! » حتى يمسي مورق العود . وحاول هؤلاء المقبلون الى لقاء فخر الضيعة ، المتهادي اليهم بطبل وزمر، ان ينزعوا من رؤوسهم صورته وهو فتى رثّ الجيب والثوب ، ليتذكروه مولى خطيراً ذا صولة ووقار .

وراج عنه انه يعود بخمسة آلاف دينار . ومنهم من قال انه يحمل خمسة عشر الفاً . يا للتوفيق العجلان وقد ركب فيه رزوق متن الاعصار الجموح . غاب عشر سنوات وحشد فيها ما لا يتوافر لسواه في مديد العمر .

وظلت القلوب المنطوية على الغيرة والحسد تعيش بحسدها وغيرتها مع سعيها للاحتفاء بالعائد المحظوظ . فيبتسم فمها وتكتئب مهجتها وهي في قلبها غيرها في لسانها الحلوب

واطل السيد المنتظر له المجد . فها هوذا يشرف على بيروت

كالأمير على مزرعته وعبيده. وارتدى ثوباً ابيض،حسن الكيّ، الا انه فضفاض. ورفع على رأسه قبعة من القش واسعة الاطراف، اشبه بالمظلة . وغطت نظارتان سوداوان عينيه . وتدلت على صدره سلسلة من الذهب الخالص ، غليظة الحبك، ثقيلة الوزن. وانها لغليظة الشكل ، ثقيلة الروح ، لولا ما تمثل من ذهب معظّم مبجّل على ما فيه من لؤم وبغي

ولكن اين من يعرف رزوقاً ؟... جميع هؤلاء الواقفين بانتظاره جهلوا انه هو وقد ضاع عنهم في ذلك اللون الغريب. ومما زاد في تنكره انه يطبق فمه على غليون اسود كأنه العظمة بين شدقي هرّ

وما التفت اليه ابناء القرية وقد امسى فيهم . هذا رجل اميركي عتيق . ما لهم يكترثون لامره . وانتظروا رزوقاً. اين هو لا يبدو ؟... فهل تأخر عن ركوب الباخرة ؟... وتلفتوا الى كل مكان بدهش . وسألوا اباه بين ساخرين وحائرين : اين « الخواجه » رزوق ؟... هل عدل عن العودة ؟

وأبوه تناول منه برقية من الاسكندرية تقول انه سيكون بعد يومين في بيروت . واعلن اسم الباخرة . فهي هذه الراسية في الشاطىء . ولكن رزوقاً ليس فيها . فاين يكون ؟

ونظر بعضهم الى بعض مستفهمين . وشاق من دهمهم

الحسد ألا يبصروا وجه رزوق وسيكسفهم ظهوره فيهم بما يموج فيه من افتخار واستعلاء ،وفي النضار نفخة من بطر . وادهشهم ان يدنو الرجل الاميركي الشكل منهم ويخاطبهم ببرودة الانكليز : آلو !... مرحباً !... كيف حال الاخوان الاعزاء؟

واختلجت كلماته باللهجة الاميركية الرخوة ، والابتسامة المتنفسة اعجاباً ، الموزونة بالدرهم والقيراط كأنها تكفر بالسخاء لفرط الانتقاش . ووضح للجميع ان مخاطبهم لا يتكلم لغتهم بسوى رطانة غلبت عليها الكلفة ، فنظروا اليه بذهول . من السيد الاكرم ؟ . . . رزوق ؟ . . . لا ، هذا ليس رزوقاً . فاين حدته ورحابته وطلاقة لسانه وحركته وصخبه ؟ . . . وجنحوا الى استنباء امره . فمن هو المائع المخنّث ؟ . . . وسرّه ان يجهلوه وان يكون تبـــدل وبات يختلف عنهم في شكله ولونه . وما انفك يبتسم قائلاً بالبرودة نفسها : ألم تعرفوني ؟

وكأن نبرة صوته فضحت ما يتصنع به من تنكر فصاح أبوه : رزوق ؟

وكان رزوقاً . فوثب عليه الاب المشتاق يقبله بشغف ولذة ودمعه ينوب عنه في النطق . على ان رزوقاً ما برح على جفافه حتى في السلام على ابيه . فما قبل يده . ولا خاطبه بكلام

يشفّ عن بليل الاحساس والمرح وما انفك يظهر الصلف والجمود . وصافح سائر المقبلين للترحيب به بعظمة تدل على ان رزوق اليوم غير رزوق الامس ، وعلى انه يعود بروح إله لا بوداعة انسان . فانتاب الشلل القوم . وتقلبت الشفاه عن خبث واخفاق وحقد. وتحلق الموتورون على الغائب الراجع باستطالة النسور واضمروا له الشر . فمن اي طينة مباركة هو ليجابههم بهذا السمو الساحق ؟. . . وعلى من يشمخ بانفه ؟... هل جهل الصلصال حقارة الهباء وهو منه ؟

وعلت غمغمات الامتعاض فيما السيارات تحمل رزوقاً وصحبه الى القرية. وشحذت العزائم للمناوأة وهو المنشود. ما هذه الغطرسة الجوفاء ولا حافز اليها والتربة الواحدة انبتتهم جميعاً ؟... وفي القرية اندفع الامير والبك والشيخ الى لقاء السيد السند رزوق المعظم ووراءهم كتيبة من ابناء الضيعة يحدون ويهزجون . فتناسى الرؤوس فحيح رزوق يوم كان يطعن عليهم بلسانه العضوض ومالوا الى ابداء الرحابة . فلا بأس بمحو الاساءة وللقلوب الكريمة ان تصفح وتتجاهل . فحدق رزوق الى هذا الجمع كله بانفة وجبروت وهو لا يكاد يخاطب احداً منهم تشامخاً . فعبس وهو يصافح «المير»، و«البك»، والشيخ، حتى وكاهن القرية كأنهم من عبيده يأكلون من معجنه . فمن هم هؤلاء الصعاليك ازاءه وقد جمع في عشر سنوات ما لم

يتفق لهم ان يملكوا بعضه اباً عن جد؟... ودخل القرية دخول الفاتح وفي نيته هدم كل قديم وبناء كل جديد، هذا الجديد المقبل معه من اميركا هدية الى المتقهقرين الجاهلين .

ووضح الاحتقار في لفتات رزوق . وكان قد حفا شاربيه مما امعن في اظهار ابتسامة السخرية المالئة فمه. فتأفف منه ابناء القرية وقالوا يكشفون فيما بينهم عن حفائظهم الفائرة: هل نسي بعضنا بعضاً يا ابن الحلال؟... رفقاً بحشمك وخولك يا «خواجه» رزوق !

وسميحة نفسها ، سميحة الهائمة بابن عمتها ، المقيمة منذ عشر سنوات بانتظاره ، راعها منه جموده حيالها . فهل غابت عن ذهنه ؟... أيجهل ما عانت في سبيله وما كلفها الحفاظ من فداء ؟... هل خفيت عليه سطور رسائله اليها وقد خطها بيده ؟

وآلمتها نظراته . فهو يرنو اليها باستهزاء كأنه لا يدري انها ابنة خاله ، كأن « الخواجه » رزوقاً تناسى الماضي ومحاه من ذهنه واقام بينه وبين الامس حجاباً صفيقاً لا تنفذ منه العين . ولم يرضَ عن احد ، حتى عن امه وابيه . منزله بات لا يعجبه. فهو يريد ان يشيد لنفسه صرحاً يليق بمكانته ، صرحاً متعدد الاعمدة كالهياكل ، عالي القباب كالحصون ، يحجّ اليه القوم كأنهم يدرجون الى مزار . العمى يا جماعة ، أليس من يدرك قدر « الخواجه » رزوق ؟

وجاءته نساء القرية يطلبن اليه التحدث عن الانسباء المهاجرين. فانكر ان يكون ابصر أحداً . واذا تحدث عن فئة منهم تكلم باستخفاف . فما بسطت أميركا ذراعيها لسواه . اما الآخرون فضاع عنهم كأنهم الثالات

وكان موجزاً في بيانه كمن يبيع الكلام بميزان العقاقير. واذا تكلم اهتز في فمه غليونه وقال : نعم او « نو » . و « نو » يعني « لا » بالفرنجية وقد امعن رزوق في النطق بها . فينتفض رأسه باجمعه وهو يعلنها ، وتخرج من شفتيه كأنها مواء القط

وجميع من ابصروه قالوا فيه انه امسى رزوقاً آخر. ومنع محدثيه من الرجوع به الى الماضي . فالماضي مات لديه. ولم يبق الا الحاضر والآتي . اما الحاضر فيشير بجلاء الى ان « الخواجه» رزوقاً من زهرة الاخيار . واما المستقبل فهو لله، بل للخواجه رزوق نفسه، «الخواجه» رزوق المصلح المرسل لتحطيم اصنام الماضي والثورة على العادات الغشّة ، والمناداة بزعيم مطلق جديد

والزعيم المطلق الجديد في عرفه لن يكون سواه. فيقبض على الدفة ، ويسير بالقرية الى قمة العمران

ووقف في ساحة الضيعة يبشر بتعاليمه. هذا هو فتى الأمس المتحكك بالهامات السوامق، الطامع في سحق الجميع كي يخلو له الميدان. فاصغى اليه ابناء القرية ولكن ليضحكوا وهم يشاهدون مهزأة تمثل في ساحة الضيعة مجاناً. فليس بهم حاجة الى تذاكر الدخول

وخيل الى رزوق ان كلماته ستشعل الثورة. ولكن القوم ما ثاروا بل نظروا اليه ساخرين وقد انتهى من اجهاض خطبته. فولد طرحاً وكادت الخيبة تمزقه. وصاح من كبد تشتعل: ما بكم في جمود؟

فاخذوا في القهقهة والصفير. فخجل من ازرائهم به وصاح بحنق مستطيل: أيكون جزاء المصلح فيكم هذا التهويش البليد؟

فما خرجوا عن ضحكاتهم، بل ازدادوا به استخفافاً وغالوا في الطعن عليه هاتفين بهزء صافع: مجنون!

فكسروا ضلعه وهم يعلنون جنونه. أيكون على خبل من يجمع في عشر سنوات الالوف من الدنانير؟... وبلع ريقه وفال والغصة تكوي مهجته: يا ضياعي فيكم!

فاجابوا بسخرية لاطمة: ولماذا لا ترحل عنا يا «خواجه» رزوق وانت ذلك الغالي، المجهول الفضل فينا؟

وما اكتفوا بالقهقهة والصفير، بل مالوا على الحجارة يلتقطونها ليصفقوا له بها. ومنهم من خلع مداسه واخذ يصفق به «للخواجه» رزوق. فكانت الصدمة فوق ما يتسع له صدره. فالقرية عنيدة في الحرص على ميولها وعاداتها وسادتها، ويؤلمها ان تذهب بالراسخ فيها لتدين بالمتقلقل الطريف. والتوى رزوق الى بيته يتزوي فيه وهو يلعن ساعة عاد فيها الى قومه، ويردد بارتعاش وغيظ: يا ضياع الحرّ في العبيد!

وتذكر ما يبلغ خطباء الارجنتين ببلاغتهم من الجمهور ويحملونه تحقيق رغائبهم . وكيف يضربون به الظلم حتى تندك صروحه وتمحى معالمه. وكيف يرفعهم القوم على الاكتاف ويلقون اليهم المقاليد. اما في لبنان فكل مطالب بالاصلاح مرجوم كأن من الصعب على هؤلاء الساكنين الى ترهاتهم ان ينفضوا منهم غبارها. وجلجل رزوق يصبّ نقمته على اولئك المكابرين المتجرئين عليه ، قائلا فيهم : انهم لحمقى رعاديد . يحاربون الظلم في افواههم ويعبدونه في قلوبهم. يتظلمون ويخنقون صوت من يقبل لانصافهم. يريدون الحياة الحرة مكبلة بسلاسل العبودية . ينقّون في الليل كالضفادع وينهزمون في النهار امام انوار الشمس !

ونفر من سكنى القرية. لن يبقى في اوجرة الثعالب. وازمع الاستقرار بالمدينة الطليقة، ببيروت الفاتحة صدرها للحضارة، المقبلة على الحديث تنعم بعائدته وتخلع عنها القديم السقيم. ولكن ماذا يفعل بسميحة ؟ . . . سيهجرها كما يهجر القرية . فليس في جهنم صالحون !

على ان سميحة ما تزال منذ عشر سنوات ترقب بامانة واخلاص عودته ، أيكافئها على امانتها بالهجران؟... فاين الحفاظ ان يكن رزوق،وهو الداعي الى الخير،في غرّة من يعبثون به؟... الا ان رزوقاً وقد كره القرية كره ابناءها اجمعين لا يستثني حتى امه واباه وابنة خاله سميحة . سيرحل الى بيروت . ولا

عتب على الفارّ من الاجحار النتنة الموبؤة وليس يأوي اليها غير المتاكيد الغافلين !

*

– دعيني ، سارحل . فلست اطيق البقاء في اعشاش الجهل والخنوع !

– وما ذنبي وانت تخاصم ابناء قريتك ؟

– ذنبك انك منهم . فلا ابرار في صدوم !

–ولكني ابنة خالك، فهل تتنكر لمن جُبلت على طينتك؟... لي عشر سنوات بالانتظار !

– كان عليك ان لا تنتظري !

– رزوق !

– رزوق بات لسواك ، لفتاة في مستواه. فكم من المراحل تبعد بيني وبينك ! .

وتدحرج الى بيروت. لا كانت القرية. ان فيها لرؤوساً يابسة جوفاء، وفيها بله وخمول. وما اصغى الى ضراعة سميحة وهذا الخبز ليس من ذاك العجين. وفي بيروت اشترى منزلاً فسيحاً يرمز الى مجد قديم . هذه دار وجيه مات عن وارثين متعددين كلهم يشكو الاملاق . وجاءهم رزوق بدنانيره فباعوا منه الدار بما تيسر . والمهم ان تطحن اضراسهم اللقمة وتمتلىء اجوافهم وقد وثب اليها الحواء الذريع

وبطر رزوق وتبختر. امسى من الوجهاء ببعض حفنات من نضار . فالدار النبيلة الوجه ترفعه الى مقام ملحوظ في العاصمة الحافلة بالمغبوطين . فما انتقلت اليه بجارتها وترابها واخشابها وحسب ، بل بوجاهة من شيدها . والناس في عرفه بالمكان ، لا المكان بالناس

وبقي عليه ، ليرسخ في وجاهته ، ان يتزوج فتاة ذات اسرة عالية المناف ، ومن بيروت . فالفتيات على جمام وفد ملأن الزوايا ، والقاعات ، والسبل ، الا ان رزوقاً يريد منهن الزهرة ، بل زهرة الزهرة . ولماذا لا يطمح بعينيه الى المعالي وهو في الشباب بسمة نديّة وقد احرز المال والعزم والفطانة ؟... وما غابت عنه اسرار احدى اللغات الاعجمية . وحذف الماضي . فلا جده عصب رأسه بالطربوش المغربي . ولا جدته غارت في السروال الوسيع ، المتعدد الطيات والزمّات . ولا هو ولا ابوه اعتكفا على المحراث ، والنير ، والابقار ، وحقول التوت ، يعاندان الزمن والزمن يسخر بمجودهما المضني

ولكن من يرشده الى الفتاة المرجوّة وهو يبتغيها هيفاء ، متعلمة ، ابنة بيت ، عفيفة ، لطيفة ، لم يقبّل سوى أمها فمها ؟

ليس يعرف احداً في بيروت وما يتكل فيها على سوى نقوده . وسقط اليه ان رجال الدين ذوو اطلاع على المخابىء والاعشاش

فلا يعجزون عن انالته الصبوة. ولكن من يعتمد منهم وفي كل وادٍ اثر من ثعلبة ؟... ففتح كيسه، والمال عصا السحر، واذا بمن يضرعون الى ربهم صباح مساء كي ينقذ البشر او يبيدهم—فمن يدري ؟ — يتسابقون الى ارضاء « الخواجه » رزوق وما يقلق خواطرهم ان يعبدوا الرب الآخر المتوسد حنايا الكيس

وحفلت جيوب رزوق برقاع طويلة كاذناب الافاعي تحوي اسماء بنات من مختلف الاسر والطبقات. بنات بعدد الرمال من كل فصيلة ، وكل عمر ، وكل لون . فيهن البيضاء والسمراء ، والغنية والفقيرة ، واللهبى والمكسال . ورجال الدين يبدعون التحدث عنهن وكلهن عندهم شريفة ، راقية ،روعاء. ويناضلون عنهن بايمان وجهد . فلا عكر في خابية الزيت !

ووقع رزوق على تاجر من عبّاد الربين يشبع فيه التقى وقد ستر به الطمع . فيصلي لله لا تسبيحاً لذي الجلال، بل تمويهاً يمهد به الى الدرهم الغرّار يقنصه ويخزنه هياماً بمرآه . ليته اطعم به المحاويج الضعاف ، اذاً لحسن الكشد والجهاد. قال رجل الدين يتناهى في ابداء نظافة الكف ووضاءة الدخلة: جنوحي الى نشر الوئام في الناس يحفزني الى هذا السعي الشاق يا ابني. فما التمس غير التوفيق بين الارواح الشاردة لئلا يلتوي الكون عن مجراه. فالخير والرحمة مفروضان على مثلي لصون الخلق من الفناء !

ودفع الى رزوق دفتراً يملأه ثمانون اسماً من اسماء الفتيات

كأنه سفر البعث . فاختلطت فيه سعدى بيمنى ، وانطوانيت باورتنس ، وهدى برجاء . اسماء من كل محطب كأنها معرض مزامير ونفاخات

وضاع « الخواجه » رزوق بين هذه الدمى. فمن يختار؟... هدى ؟... «نوا». انطوانيت ؟... « نوا! » . « اورتنس »؟... ولا « اورتنس » !... رجاء ؟... لا قطع له الله رجاء !

ورغب في الاسماء الفرنجية . فهي اعذب وألمع . واين سعدى من « سيزات»، ويمنى من « هنرييت » ؟. . سيقع على ذات اسم فرنجي . فالبضاعة الواردة من باريس افضل في عرفه من بضاعة الحدث ، وسن الفيل ، وصربا ، والبوار

وكمن يعمد الى القرعة يستطلعها وجهه اغمض « الخواجه » رزوق عينيه واتكل على الله . واشار بيده ، وهو مغمض العينين ، الى اسم في الدفتر فاصاب اسم هنرييت شم ... وقال لرجل الدين : هذه يا سيدي !

فقال رجل الله التقي النقي السليم من لطخة الغش: احسنت يا ابني . هذه فتاة عريقة النبعتين . ابوها من تجار المدينة وامها ابنة اكرم اسرة . ولها من العمر خمس وعشرون سنة . وترتع في بائنة شبعى . واهلها في حرص عليها وما يجازفون بها . فعليّ ان اغلو في الاشادة بمنزلتك كي يعقدوا لك عليها. الا اني سأقنعهم بان يلينوا في استعلائهم وانا منهم على وارف المودة . فما انزع

الى سوى الترفيه بلا منّة، والاسعاد بلا امساك، فلا تخشَ. طلب العشرات من صفوة الشبان الفتاة فرفض الاب والام لفرط الاعتداد. والفتاة نفسها لم ترضَ. اما انا فاستلّ لك النسر من الوكر. وسأصلي لله كي يعهد لك الى الشهوة. وما يغيب عني انك لن تعبث بالجهد!

وابتسم رجل الدين ابتسامة المستهوي. فهل من قطرة ماء تبلّ ريق العطشان؟.. وهوت يد رزوق الى جيبه تسلخ منه قطعة من النقد غمز بها يد ذلك المشمّر في تجارته المدرار. فبسط رجل الدين راحته وومضت الذهبة في عينيه فماع هوى. الا انه تماسك وابدى تكشيرة تشفّ عن خيبة. فاستدرك رزوق يغري بالعطاء السمين: ولكنها الدفعة الاولى، وستتلوها دفعات!

فتوارى الدينار كالومضة في الجوف البطين ووعد القانص خيراً. وشخص الى دار الفتاة يحدث عن رزوق حديث الساقط على الدرّ المنظوم. كنزٌ غفلت عنه اميركا فازدان به مفرق لبنان. واطنب رجل الدين في الامتداح وليس لمغالاته امد وهو يعيش في جو من الاغراق. فالسرف في تجسيم الواقع داء مزمن فيه. وما كان الا هارفاً في ما اذاع في سمع رزوق عن والد الفتاة. فقال فيه انه من اقطاب تجار المدينة وما هو سوى بائع شاش ومناديل في سوق سرسق يربح المال بالتقطير ويعيش بالتقتير. ووالدة الفتاة لا مكانة لها وامها اشتغلت بائعة ازهار واجساد.

فكانت تجتاز في الليالي الاسواق في تجارتين تتقلبان على زهر وعهر. وجمعت بعض المال فاشترت به لابنتها زوجاً يسترها ويقيها الكساد

وابهج الوالدين ان يسمعا من رجل الدين هذه الاشادة بمن يزجيه الى بسطة النحر . أبله زلت به القدم فتمكن منه شاهرو المدى المسنونة وأعدّوه للسلخ . وضحكوا وهزجوا . فلا حياة لنفس بسوى موت نفس . وانتشى رجل الدين بما دبر من فخّ . انه لمن الحذق في نسج الدواهي بما لا يعدله فيه اخو ويلة. وكانت «هنريت» بجانبه فعبث بشعرها ولامس خديها ودغدغ عنقها وقال ببسمة سمحة : تأهبي لبراح هذا البيت يا نور العين !

وافرط في مداعبتها فقالت بطاغي الشوق وما تلتمس الا النجاة من الاسر : ومتى ندرك المنى ؟

– بعد شهر من الزمن . فلن يعدو بزوغ الرجاوة الشهر !

– واين ستستقرّ بي النوى ؟

– سنبقين هنا ، في بيروت !

– ومن هو الزبون ؟

الزبون!... بمثل هذه الكلمة الوضاءة سألت عمن أعدّ لها رجل الدين خطيباً فزوجاً. وارتاح المبشر برحمة الله الى صيغة السؤال واجاب يكبر جهده ومعروفه : هو شاب ملء جيبه المال وستغرقين في ما ينثر عليك من الذهب ، وملء روحه الانافة وستعجبين بغليونه وقبعته وحذائه الاميركي الضخم ولهجته الرخوة

وقد زاوجت بين حضارتين !

– وكم له من العمر ؟

– لا يجاوز الثلاثين !

– أيكون جميلاً ؟

ولا بد من السؤال عن الشكل والرونق . قال رجل الدين يأبى ان تثقل ضميره ذرارة : جميل، ولكن في جماله قسوة صخور لبنان !

فصاحت الام والفتاة معاً : لا بأس ، لا بأس !

وايقن رجل الله ان الصفقة تجري في الطريق الآمن فسحقت إبهامه سبابته يستوضح بدل الكفاح . قالت الام : ما تشاء !

فتمتم بلا خشية : أتؤدون خمسين ديناراً ؟

والدنانير من الذهب ورجل الله لا يتقاضى الا الذهب العين. فقالت الام : ولك خمسة فوقها !

فتألق وجهه وانتفشت لحيته وقال: نعمة كريم. ليتكم سمعتم ما حدثته به عنكم . قلت له انكم من الاشراف، وانكم مثال الطهر والفضيلة ، وان السعيد السعيد من ترشده العناية اليكم ، وان عشرات الفتيان طلبوا « هنريت » للزواج فاعرضت عنهم شامخة . واريد منكم ان تؤيدوني في قولي . حذار ان تتخطوا النطاق !

وجلس في صدر المنزل يدخن النارجيلة بعجب . وسأل عن الباثنة

فقالت الام : ثلاثمئة دينار ذعباً تدفع في ليلة الزواج !

قال: سنوهمه انها اول الغيث، وان موعد الانهمار وشيك. فلا غنية عن بعض الشعوذة للاستمتاع بالبغية. وعندما يقضى الامر فلينعق صاحبنا حتى يشيب !

وضحكوا جميعاً. فالخداع يذلل العسير. وجيء برزوق الى الوجار لدقّ عظامه . ولاحت له « هنرييت » فراقته بضاضتها ورصانتها. وداعة قديسين وطهارة ابرار. فالنظرة بريئة والبسمة حييّة . والكلمة لا تتصاعد من الشفتين الا لماماً لفرط طغيان الحشمة، وما تبدو الا كالتنزيل كأنها الخلاصة. فافتتن رزوق بالصباحة وبالحياء وبالرزانة . وما ضاع عن الرجاوة وقد وقع على الجمال والفطنة . هذه ابنة عز وعلم تنير الطريق لمن زاغ وتعامه. وكم على سميحة ان تطوي من مراحل كي تبلغ هذا المرتقى . سميحة متقهقرة جاهلة ، بل فلاّحة وضيعة ليس لرجل وجيه ، نبيل ، « كالخواجه » رزوق ان يقيمها في ذرة من نفسه وما ترجح الثالة . فالمحيا المشرق النصاعة خيرٌ من الوجه الاحمر المحترق بنار الموقد ووهج الشمس. واليد الملساء افضل من اليد الخشنة. والقالب الأهيف ، الوثاب ، يعدو القدّ الضائع الهندام ، الحائر في ما يكتسي به من حلل تكمن فيها رائحة الدخان وينشر عليها الزيّ القديم روح الاندثار. اجل، « هنرييت » غير سميحة. فليس لابنة القرية ان تعادل ابنة المدينة وهذه من مقلع وتلك من

مقلع آخر . و «هنريت» تتكلم الفرنسية ، فماذا تعرف منها سميحة ؟... لا ، رزوق رابح الصفقة . على ان الغافل ما درى انه سكر بزبيبة . نام على فراش من حرير ليستفيق على وخز المسامير بهداية رجل الدين الامين . تبارك الله !

*

هنريت !... يا للاسم الريّان. فكأنه ضمة من زنبق ازدان بها صدر « الخواجه » رزوق

رزوق ؟... ولكنه اسم فرويّ عتيق وفي الاسماء كما في الاشخاص ما هو نبيلٌ وزريّ . ولم يكن اسم رزوق لينال رضى «هنريت» فقالت : أليس من الافضل ان نختار لك اسماً يشيع فيه الذوق ويلائم لون العصر ؟

وخلعت عليه اسماً آخر وقد امسى زوجها فاخذت تناديه : « روجه ! » . هذا اسم فرنجيّ لطيف يحلو وقعه في السمع ويفوح منه عرف الحضارة . أما رزوق فاي اسفاف فيه ، واي هرم وقد شاخ وفني ، هو اسم فلاح خامل ، اسم راعي الشويهة والبعير !

ولم يمانع رزوق في التقمص . امسى « روجه » ومضى يدخن غليونه ويتكلم ما تعلم في المهجر من لغة اجنبية . تكلمها ليقول لزوجته انه ليس غريباً عن الفرنجية ، وانه احرز الاسم المخلوع عليه بجدارة واستحقاق

وخبرت « هنريت » زوجها ، بل « المسيو روجه » — فلا رزوق ولا «خواجه»— حرسه الله. فاخذت تضحك منه لفرط دعواه وغلوه في تعظيم قدره. فتزعم على مسمعه انها تحبه ولا تخجل من القول لسامعيها انها كاذبة في ما تبدي . فما تهوى غير فتى من ابناء الجيران. والجوار يحيي الصبابات لوفور اللقاء . هامت به وهي عازبة وما خرجت عن هيامها به بعد الزواج. ورزوق كالابله يحسب نفسه مفتوح العين وما يدري ان تحته يجري الماء

وذات يوم امعنت « هنريت » في التودد الى زوجها ولم يتعوّد ذلك منها، وما علم ان وراء هذا التودد مطلباً. قالت : « روجه » ، حبيبي « روجه » ، أتمنع عني امنية غالية اعلل بها النفس ؟

فاجاب وقد خدعه مظهرها الوديع، الكيّس،ومنطقها السائل باسترفاق : أأمنع عنك أمنية؟... ولكني لا ابخل عليك بالحياة. اطلبي ومطلبك ناجز عندي !

قالت بغنج جذّاب : ألا تهب لي هذه الدار ؟

فجرض بريقه. لم يكن يرقب هذه الجسامة في الشهوة. قالت تعيّره النكوص وقد لاحت لها فيه الكمدة : أتتردد ؟

فاضطر الى الجواب مكرهاً : لا . هي لكِ . فخذيها !

— أتكتبها باسمي ؟

فعاد يبلع ريقه . على ان الخوف من تعييره الاحجام حفزه

الى القول على رغمه : منذ غد !

وما ابطأ في العطاء . فهو رجل تعوّد الوفاء. وباتت الدار لهنرييت . وما ملكتها حتى اضحى رزوق تحت رحمتها كأنها شدّت في عنقه الرسن . على انها ما انفكت تطمع في المزيد ، فتدلل رزوقاً بالكلام الحلوب قائلة : روجه، حبيبي « روجه»، انت برّ ندب ، انت البدر في ليلة تمّه !

وتمازحه وتلامس خديه، ولكن بسخرية وهزء، وتبتلع ماله. وتدعو عشيقها الى المنزل وتعدّ له الشراب وتسايره على مرأى من رزوق ومسمع. ودفعتها القحة الى القول وهي تشير الى خليلها: روجه، حبيبي « روجه » ، كيف ترى هذا الاغيد الفرفور ؟

فتبرم رزوق بالمقال الذميم والمشهد الداعر وصاح محتدماً: ولكنك تخرجين عن نطاق الأدب يا «هنرييت»، أتنسين اني هنا؟... أتجهلين انك امرأتي؟... من هو هذا الغرّ تجلسين اليه بمثل هذه الخلاعة؟

فقهقهت ضاحكة وقالت : ألا يجوز المزاح ؟

فصاح بحنق : لا يجوز بهذا الشكل القبيح !

فعادت الى قهقهتها غير المبالية وقالت بفاضح الازدراء : أرأيت انك قرويّ عتيق ؟... اخطأت يوم أطلقت عليك اسم « روجه » . فانت رزوق . «روجه» يطلق على ارباب الذوق، على ذوي الكياسة ، اما رزوق فهو لكل صلف خشن ، لكل فلاّح غليظ من طينتك . صحيح انك رزوق !

ولم يكن قد سمع منها هذه الشتائم. فضرب بيده الخوان المبسوط في صدر الدار هادراً: اني امنعك من هذه الدناءة، أفلا تخجلين؟

ودنا منها مهدداً. ودعا الجار الى الانصراف. فتهكمت به قائلة باحتقار وقد جاءت على وفره: حقاً انك مجنون. أتمنعني من الكلام وتطرد من يشوقني ان يكون بقربي؟... ولكني وحدي صاحبة الحق بهذه الدار، واني لاطردك منها. هي داري. فارحل عنها. ليس للاجلاف انداد ك مجالسة السيدات نظائري. انت رزوق، رزوق. هذا اسم راعي ابقار، اسم حطّاب، زبّال. صحيح انك رزوق!

وقذفته دراكاً بالمهانة. فالقوادع اندلعت كألسنة النار في آبار الزيت. وأصيب رزوق المسكين بالذهول. أتطرده امرأته من منزل اشتراه بماله؟... وزعق وقد عزّ عليه ان يصاب بكرامته وبنشبه: أتجهلين من انا؟... انا زوجك. بيني وبينك ميثاق لا تنقطع له اسباب وقد احكمته شرعة الله. انا رب هذا المكان وما ادى بدله سواي. فابتعته بدم قلبي. انا صاحب حق صريح فلن ابرح داري حتى آخر ايامي. واني لأكرهك على النأي عن مثواي فابتعدي يا قليلة الحياء. فالقوم في الارجنتين مع رفعة شأنهم كانوا اطوع لي من لساني. فما بك تفيضين بالقول الفاجر، وتبدين الفحش، هل انتابتك ازمة من هوس فضعت عن نفسك؟

فضحكت ساخرة وقالت تمتهنه: اذا ضعت عن نفسي فلم اضع عنك. انت رزوق!

فتطاير نقمة وصاح والرعدة في عروقه: أما تنفكين تهينينني؟... ألا اتئدي . لا تحمليني على تفجير سخطي !

فابانت ببرودة غير المكترث: أهينك واطردك. فمن الافضل لك ان ترجع الى القرية وتحرث فيها الارض. اقامتك فيها خير من نزولك بلداً يستذلك !

فدمغته بالحقارة حتى لم يبق فيه نزارة من رشد . وجلجل كأنه ثور يزمجر ويستوي للنطاح : أتقصينني عن مأواي ؟ . . . انك لداعرة القول والروح . والله ، لاسحقنك !

ومشى اليها وقد فار وابتغى الايذاء . سيخطف روحها . فاشارت اليه بسبابتها آمرة ان قف، وصرخت به باستخفاف صادع: يا احمق ، لمن امسى هذا المنزل ، لمن ؟

فقصف صوته كالرعد : ولكنه لي . اغربي !

فغمزت عليه عشيقها وهجما عليه معاً يطردانه من بيته. ودفعاه الى الطريق كالفضالات المنبوذة . واقفلت « هنريت » الباب تمنع المبرم من الدخول. فليجد لنفسه مأوى آخر يصرف فيه ايامه وقد تنكر له مبيته. يا للمصيبة العمياء يا رزوق!... وتعب باطلاً في دق الباب فلم تفتح له«هنريت»، بل امعنت في طرده كالسائل المقيت . فبكى . فهزأت من بكائه المهين ومضت في نبذه . فذكر سميحة، سميحة المهجورة في القرية بعد انتظار عشر سنوات. قال: هجرتها فانتقم مني القضاء العادل . اني لاغسل جنايتي بدموعي

ويباهج ايامي !

وظل يبكي نفسه فيما ترمي امرأته بين ذراعي عشيقها . وما درى الى من يلجأ كي ينقذه من بليته . فالمنزل بات لامرأته وليست تطيق ظله . فاذا شكاها الى دار العدل فلن يقع على حجة تقيل عثرته . فالمنزل افلت منه وقد تخلى طوعاً عن زمامه . وعاد يسترحم بمستفيض الضراعة : الرحمة يا « هنرييت » !

فاجابت بقسوة واستهانة : اني لاصدّك عن منزلي . فانصرف . خزت القدرة هذا الوجه الشنيع . لا اريد ان يأوي الى مسكني بغل لبّاط !

– هنرييت !

واطلق الصيحة من كبد تتلاشى . فاغلقت «هنرييت» الباب بجفاء ونبرت : من انت كي تناديني ولست اعرفك ؟... أأدعو رجال الامن كي يقبضوا عليك؟.. انت لص . فابتعد، خذلك الله!

فحاول الانقضاض على الباب ففاتته الجرأة . ليس له في المنزل وسادة يطالب بها وقد جاد بكل ما يملك على زوجته المجاهرة بالعصيان . فكم خدعه رجل الدين المفضال وهو يرشده الى المستهترة الشريرة . ولم يجد محيداً عن ابلاغ المهدي غثاثة الهدية متشفعاً اليه في نفسه وقد يصلح ما بينه وبين « هنرييت ». ومثل في حضرته يقول : سيدي الجليل !

فجهله السيد الجليل واطال اليه النظر مستفهماً : أأنت

يا ولدي ؟... أنت ؟... ولكن من أنت ؟

فاجاب باعوال : انا رزوق !

-آه . تذكرت . رزوق . كيف حال ابني ؟

- على ما لست ترغب فيه حتى لعدوك يا سيدي !

فابدى رجل الدين الدهش. مع انه كان يرقب في قرارة خاطره لرزوق المنكود هذا المصير الاسحم . قال بخبث وهو يتظاهر بصفاء النية وبالغيرة على الملهوف: ماذا ؟... هل من بلية حلت بولدي ؟

فاجاب رزوق وهو يئن ألماً : طلبت نصحك وارشادك فلقيت المكروه !

- وماذا اصاب ابني رزوقاً ، حرسه الله ؟

- طردتني «هنريت» من المنزل وقد وقفته عليها واستأثرت بمالي . وتبين لي انها ذات عشيق . أهذه هي ابنة الاسرة النبيلة التي ارشدتني اليها ؟

فمانع رجل الله في التصديق : محال يا رزوق . « هنريت» شريفة لا تخون . هذه فتاة توليت تربيتها بنفسي . هي غرسة طاهرة سقتها يميني ، فاني يدركها النشوز ؟

- ربما كانت المصيبة في انك توليت تربيتها يا سيدي. والان وقد وقعت الواقعة فلست ارمي الى سوى اصلاح ذات البين . فكما ألقيتني في المهواة ارجو ان تنتشلني منها !

فغضب المؤتمن على هداية النفوس وقد وقعت في صدره طعنة رزوق . وشاء الصخب والارعاد فجبهه رزوق بالصلابة لا ينزّهه عن التهمة معلناً بجراءة المستميت : لست اجيز لك الاعتراض بكلمة . عليك انتشالي من بلية جررتني اليها بيديك !

فخشي رجل الدين على نفسه من رشاش الفضيحة . واسرع الى « هنرييت » للتوفيق بينها وبين زوجها فابت . ليست تتوق الى القيد بعد ظفرها بطلاقة المهزة . قال رجل الدين يميل بها الى المسالمة : ولكنه يلقي عليّ كل تبعة وقد جئت به اليك . فلا تثلمي عرضي بعنادك فيقول عني اني غرّرت به فيك . افسحي له اليك واسترضيه بما لا يرجع به اليّ ، فاسلم من تنديده بي ومن مرآه !

قالت بعد رهيف العنت : ارضى به كرمى عينيك ، على ان يكون اعمى ، ابكم ، اصمّ !

وخوطب رزوق في مطلب « هنرييت » فتأفف . بيد انه لم يلبث ان اعلن رضاه وهو يرغب في اتقاء الشماتة . ولكنه فاجأ ذات ليلة المستهترة على ركبتي عشيقها . فلم يكن منه الا ان فرّ من هول المشهد الكالح كافراً بالردة . لن يأوي الى الجحيم . ولم يرجع الى رجل الدين مصدر بليته . ولا التمس شفاعة ذي خطر وليس للنتن ان يمسي عطراً ، بل اصرّ على القطيعة واقام في نزل حقير ينثر الدمع ويضرب برأسه الحائط ليتحطم رأسه ويموت . غير انه لم يمت . فظلت تجول فيه الحياة امعاناً في اذاقته الضيم .

وباع سلسلة الذهب وساعته وخواتم الماس كي يعيش وهي كل ما بقي له. وخشي العودة الى القرية والسخر منه سيشنه عليه كل فم، والاشتفاء بما صار اليه سيملأ كل قلب ، حتى قلب سميحة. ليته يجروء على الانتحار . اذن لكان ينجو من عبء الويل القاصم . ولو ملك ما يقوى به على الرجوع الى المهجر لركب اليمّ الى الاقاصي يدفن فيها خزيه . طلب الرفعة فلقي الهوان . الف صلاة وسلام على سميحة !

وفوجيء ذات يوم بوجع في عينيه لفرط الحسرة. وضاقت يده بما يداوي به نفسه فدهمه العمى. وما زال يخاف من الرجوع الى القرية وسيضحك منه اخوانه ويشمتون به

وبات صاحب النزل لا يطيقه وقد اصفى. فاهاب به الى الرحيل. ليس النزل مأوى المعوزين وارض الله واسعة. فلينشد فيها رزوق مقراً. واضطر رزوق الاعمى الى اجتياز شوارع بيروت ضريراً لا يهتدي الى طريقه ، ولا يلقى من يحنو عليه . وما خاطب اهله في امره وقد قطع بهم كل صلة. وهل لهم ان يرفقوا به عوداً يابساً وقد جفاهم غضناً مورقاً ؟

وفيما قدماه تدفعانه في شوارع بيروت الى حيث لا يدري، وقد توكأ على عصا تكاد تنوء به، وعلا طوقه الوسخ ورثّ ثوبه، فيما نفسه تحدثه بان يرتمي تحت دواليب القطار، او عجلات احدى السيارات ، وقد يئس من دنياه وآثر الموت على البقاء الفاضح،

امسكت يدّ بيده ، يدٌ لينة يتقد فيها العطف والحنان، وهمس في اذنه صوت خافت تخنقه الدموع : رزوق !

هذا صوت يعرفه . هذا صوتها . صوت سميحة . ومشت الرعدة في مفاصل رزوق . وخجل من نفسه . هذه من اعرض عنها في ايام زهوه ويسره فاقبلت اليه في ايام محنته وشقائه . وبكى متأثراً وقال: سميحة، دعيني اتابع طريقي الى مدفني، انا غير حقيق بك . صددت عنك فصدمتني النوائب وما ابقت مني على سوى خشبة نخرة لا تصلح لسوى النيران . انا جنيت على نفسي بيدي فدعيني منطلقاً في بلوغ أمدي !

وزخرت عيناه بالعبرات الهواتن . وسميحة بكت على حاله. أهذا هو الرافل في النعمة،التيّاه النظرة؟...ألا كم امعنت الليالي في قهره. وقبضت ابنة خاله على يمينه وهي تعالنه بلاعج الاشفاق: بل تعال ، تعال نتسلق القرية . فلا يزال مكانك خالياً فيها. لا تزال سميحة فاتحة لك قلبها مع كل ما لقيت منك . ان قلباً احبك لا يبغضك . تعال . جاءني عنك ما حلّ بك من بلوى. لا بأس . هذه مشيئة القدر. عندي ما يكفيني ويكفيك . تعال الى من لا ينفك قلبها يخفق بشوقها اليك !

وسارت به على رغمه الى القرية تقف عليه ثروتها . وايقن رزوق ان السعادة ليست في الارتقاء الى مستوى لم يخلق له، بل في معانقة قلب يصفو له ويلين . وتناسى امرأته الخائنة ، اللصة ،

وعاش لسميحة، بل عاشت له سميحة تجود عليه بحنانها، ويرفدها، بعد ما عانت لاجله العذاب المهين. سحقتها شماتة القرية لاعراض رزوق عنها . وما تنفك الشماتة تسير بجانبها كظلها . فما عاد رزوق اليها الا وهو كالسفينة المحطمة لا يصلح للصيف ، ولا للضيف ، ولا لغدر الزمان !

على ان سميحة راضية بمن احب قلبها. ضحت لاجله بشبابها فلا عليها ان تضحي لاجله ببقوى لياليها . واكبر قومها سمو الفداء في ما نذرت له نفسها . ولكنها لقيت من يزدريها ويقول فيها : هذه مجنونة . كان عليها ان تصدّ عنه كما صدّ عنها وليس للمتجبر الهاوي نصيب من ولاء الكرام!

فلم تسمع ولم تتذمر، بل تولت خدمة ابن عمتها باخلاص . واقامت ترقب موت امرأته « هنريت » ليكون لها . وقد تنتظر العمر بطوله ولا تتوافر لها الامنية . والامنية حرون !

وشاعت حكاية رزوق وباتت في القرية مضرب المثل . وما تفتأ الشفاه ترددها بخبث وسخرية : عاد رزوق من اميركا ، الحمد لله على السلامة يا رزوق !

•

لا تنحبي !

قصر الامير بشير لا يضحك اليوم للشمس المتوهجة في قبة الفلك، فهو كئيب عليل ، اخفى رأسه بجناحيه كالطير الجريح صابراً على المضض ريثما يشفى او يفنى

وربما كان قصر الامير ضاحكاً اكثر منه في كل حين ، الا ان عين سلوى الجندي بصرت به حزيناً ، مريضاً ، والعين الجازعة يلوح لها كل ما حولها اسود الوجه ، كالح الصميم

وسلوى ابنة رجل فقير مات وبده لا تملك بدل تجهيزه لقبره. ولولا عطف ذوي الاحسان لظل في كوخه جثة تأكلها الديدان ولا تجد من يودعها الضريح

على ان المروءة في لبنان لم تمت ، وخصوصاً في القرى . فالرؤوس باجمعها تنحني ازاء الموت والحصيم يمشي في موكب الجنازة كالحميم . فكأن هذا السلطان القاهر ، البغيض ، ما خلا من بعض الحسنات . فيهب للمتعبين الراحة ، ويجمع بين القلوب المتنافرة ، فيبيت الخصماء على صفاء نضيد

وترحمت البلدة بكاملها على والد سلوى . واستعاد مشيعوه ذكريات ايامه فرووها كما تروى حوادث التاريخ . ومما قالوا فيه انه كان جندياً في الجيش اللبناني ، ذلك الجيش المزخرف اللباس كأنه ابداً في عيد، وله من طربوشه الاحمر، وسرواله

المنفوخ ، ومن معطفه المطرّز ، ما يقيه في طائفة المزهوّين ، المدللين

وقيل في والد سلوى انه كان شريفاً ، على انه خجول ، فلا يطالب بحقه حتى اذا هُضم هذا الحق عليه. ولو ملك الجرأة لترقى في مراتب الجيش وهو ذو استقامة وخبرة، ولكن خجله قضى على عزه ورغده . فمات عن حصير،وبساط،وبعض الافرشة، وكانون، وقدر، وثلاثة اولاد . وسبقته امرأته الى الرمس تعدّ له المضجع.وما بقيت سوى امه العجوز تعتني بهؤلاء الافراخ الصعاليك

اما اصله ، ومن اي بلد هو ، فليس من يدوي . جاء الى بيت الدين صغيراً واستقر بها يتعيش . ووافته اليها امه تغسل ثياب الجند وتجاهد واياه في كسب القوت . وترعرع فاعجب بملابس الدرك الحمر ، والخضر ، والبيض . وشاقه ان يكون دركياً . ولكنه صغير . فاكتفى بان يقلد حماة الامن في حركاتهم ومواقفهم. فاطلقوا عليه لقب « الجندي » . وطغى عليه اللقب. وتوالت عليه السنون وهو يحمله. ولما بلغ الحلم، واباح له نضجه ادراك الصبوة ، كُتب اسمه في الجيش نصيفاً الجندي . وحمل ابناؤه من بعده الاسم، وباتوا فيه على رسوخ كأنه عنوان الاسرة منذ فجر الوجود

ومبيت نصيف على مقربة من قصر الامير بشير . هذا القصر الباسط جناحيه على قمة مندلعة من صدر بيت الدين كأنها ثديٌ ناشز

صلب . وليس مبيت نصيف ملكاً له . بل للاسقف . وبدل الايجار في الشهر نصف مجيدي . واذا عاند نصيف في الاداء ابلغه صاحب السيادة ان الطرد نصيبه. فاما الدفع واما الرحيل

والاسقف صاحب املاك واسعة في بيت الدين . اشترى بعضها بماله، على ان معظمها انتقل اليه من الامراء الشهابيين وقد وهبوها له في ايام المناعة والعز . ولكن الاسقف يعلم ان هذه الاملاك الفساح في قبضته ، فيستغلها ، وتفيض عليه خيراتها ، ومن يجرؤ على هضم حقه بها تأكله النيران، لا نيران جهنم وهي لا تعبد الحقوق المهضومة الى اصحابها ، بل نيران السجن المضطرمة ابداً لتعذيب كل من تحدثه النفس بنهش اموال سيادته ، او حجبها عنه

وسلوى الجندي اذا ضاقت بها في ذلك اليوم الدنيا، وتذمرت من الحياة ، وبدا لها قصر الامير بشير دمّاعاً ، وجيعاً ، ولاح لعينيها الكون في جفوة ، فما علة بكائها وألمها سوى تضييق وكيل الاسقف عليها في اداء الايجار . قالت تلاينه . صبراً علينا يا سيدي. أيخفى عليك ما نعاني في هذه الايام الكافرة؟... نشتغل ونجاهد والعشاء خبز حافّ. واننا لنحمد الله على كوننا نستطيع الحصول على الخبز وقد خشينا ان يدهمنا الجوع !

بيد ان وكيل الاسقف يجهل هذا اللسان الحزين. فكل مايعرف ان يتقاضى القيمة . اما الرحمة والشفقة فليستا لديه نقداً رائجاً .

وقد يكون خلا منهما ضميره . قال : هاتي البدل ، والا ...

فاجابت ودموعها تهمّ بالوثوب : صبراً الى ما بعد اسبوع . وعدني ابن الشيخ بان يؤدي الميّ ثمن قميص من الصوف حكته له. أفلا تصبر اسبوعاً ؟

فتأفف وكيل صاحب السيادة وقال بغضب : هذا كلام لا ابرح اسمعه منذ شهر كامل ، وحتى الان لم تدفعي . وكلما خاطبت جدتك بالامر حوّلتني عليك . هاتي البدل والا فارحلي . رأفتنا بكم كانت تمنعنا من احراجكم، اما وقد طال التسويف فلم يبق الى اللوم سبيل !

فلم تملك عبرتها. غير ان وكيل الاسقف ازدرى الدمع وابتسم ابتسامة شريرة متوعدة وقال: اوضحت لك ان لا رواج لهذه البضاعة عندي . اذا شئت البقاء في المنزل فادفعي . نريد نقداً صحيحاً رنّاناً . فان يكن لديك منه فهاتي . والا كان لك ان تأوي الى منزل آخر . فالمنازل على وفرة في بيت الدين !

فقالت بذلة : لو كنت تدري في اي شقاء نحن لرحمتنا يا سيدي !

فصاح بغضب : أما طلبت منك ان لا تخاطبيني بكلمات الاستعطاف وقد بتّ لا افهمها ؟... الشفقة خسارة . فالشموع في الكنيسة لا تتألق اذا حاولنا انارتها باسم الشفقة . ودجاجات المقر الاسقفي لا تعيش اذا اطعمناها شفقة لا زؤاناً. ونحن اين نجد

اللقمة ان تكن الشفقة جميع مواردنا ؟

فاطبقت شفتيها وتكلمت عنها مدامعها. قال وكيل الاسقف: امامك يومان . فاما الدفع واما الرحيل !

وانصرف بغضب وتهديد. وسلوى تعرف عن وكيل الاسقف انه قاسي القلب ، ضيق الصدر ، يجهل الكلام اللين ولا يروقه الا ان يثيرها حامية . فيجادل ويخاصم . واذا أحرج شتم كأنه الشرارة ، حتيث الومض ، سريع الاشتعال . وحدّته أثارت بينه وبين الاهلين المشاكل . فلا هم يطيقون نزقه ولا هو يتحمل منهم الغنج والدلال

ولم تكن بيت الدين قد هوت عن مكانتها . فما تزال مقر المتصرفين اللبنانيين يرتادونها في ايام الصيف ليطفئوا في ظلالها لهيب الحر الجموح. فهي العاصمة. وتزاحمها في الميدان بلدة بعبدا . ولكن في فصل الشتاء، يوم تشتبك البروق والرعود ، وتتراكم الثلوج ،وتنبح العواصف، وتهجر الذئاب مخابئها في طلب القوت

ومع كل ما تمتعت بـه في ذلك الحين بيت الدين من نعمة ووفر كانت نجد تحت سمائها من يشكو الضيق . وعيلة الجندي في طليعة الشاكين ، مع كونها مجتهدة يقظى لا تنام عن مكافحة الدهر . فالجدة تشتغل في تسليك الحرير ، وتغسل ثياب الجند ، وترتاد منازل ارباب المناصب للخدمة فيها. والفتاة تعلمت الكيّ والتطريز والخياطة . على ان التنافس حرمها العمل . فأقامت في

كوخها حائرة متألمة، وأحياناً باكية نائحة. فما تربحه هي وتكسبه جدتها لا يكاد يكفي ثمن الطلمة . وكيف تقوى وهذه حالها على اداء الايجار ، بل كيف تتقي حنق وكيل الاسقف وليست تجهل طباعه الفظة وبيت الدين باجمعها تتململ منه ؟

ووكيل الاسقف لا يطلب منها بدل شهر ، ولا ثلاثة أشهر ، بل بدل نصف سنة. فلجأت الى حقل التوت تطلق فيه زفراتها وعصارة يأسها. وبدا لها كل ما حولها اسود ، بل حالك السواد ، فاشي القطوب . واعتادت ان تقطف زهرة من الفلّ النابت امام الباب في اناء من الخزف ، الا انها لم تلتفت في ذلك اليوم الى الزهرة وفي عينها شوكة

وسمعت الابواق تنفخ في قصر الامير معلنة مجيء المتصرّف ، فتعجبت من كون يشقى فيه الفقير المسكين ويزداد ذو النعمة رفعة ورفاهاً . ومرّ امامها سرب من الصبايا الضاحكات للنسيم فحسدتهن على ما هن فيه من رغد وخلو بال . وشهقت شهقة عالية كان لها في آذانهن أليم الصدى . فاقلقهن ما بها وتوجعن لحالها . على انهن تابعن طريقهن ولم يطقن مرأى التعس الصارخ. واحتجبت سلوى تأبى ان تثير في من حولها الشجون

ولم تدخل المنزل وقد خشيت ان تبصرها جدتها في انسياب دموعها واحمرار عينيها ، فيتعاظم ألم العجوز التاعسة وحسبها ما بها. وما خافت سلوى على نفسها وهي تقوى على كسب قوتها ،

بل هالها اعالة اخويها الصغيرين وتعليمهما . فالمعلم اسعد ، ولي المدرسة في بيت الدين ، وهو رجل اصلع ، قصير ، بدين ، تركب النظارة انفه الضخم كأنها الهودج ، يقول عنهما انهما تلميذان نجيبان يرجى لهما المستقبل الباهر . وحرام ان يفوتهما العلم لضمان غدهما . ولكن أنى تأتي سلوى بالوفر للقيام بالعبء الملقى عليها وليست تجد حولها من ينجدها؟... أتستند الى جدتها وما تربح جدتها لا يكاد يزيد على مأكلها ؟... هي طاعنة في السن ، اجل ، الا ان معدتها لا تزال شابة ، واضراسها لا تبرح سليمة . فتأكل الاخضر واليابس والاعجر والصلب ، وتطحن حتى العظم . وكم يطيب لها مصّ العظام المسلوقة وقضم الجوز واللوز وقرون الخرنوب !

والجدة راضية عن حفيدتها . سلوى لديها وديعة غالية عهد فيها اليها ابنها وهو يموت . ولمست في الفتاة الذكاء والهمة فباتت تستشيرها في شؤونها ، وتطيعها في كل ما تدعوها اليه ، وقد ادركت ان حفيدتها على حداثة عهدها بالحياة أوفر منها حنكة

ونادت الجدة حفيدتها تسأل عنها ولم تجدها في الكوخ ، فاجابت سلوى : انا هنا ، في حقل التوت ، اصلي !

والصلاة في القرية يقبل عليها الناس في كل آن . فهي بضاعة بلا ثمن يتزودها الصالحون بلا عناء سلماً للآخرة . وابناء القرى يكرمون التقي ويؤمنون به . فاذا مشى في الارض حياه كل من لقيه في الطريق وانحنت له الرقاب . ويُدعى الى الصلاة لاجل

شفاء المرضى، وعودة الغائبين، وتضميد كلوم الحزانى . وتبرك بتقبيل يديه المتعبدون كأنه من انبياء الله

وجدة سلوى من التقيات الصالحات . فما اعترضت حفيدتها وهي تسمع منها انها تصلي ، بل قالت متضرعة : صلاة مقبولة عند الله يا ابنتي ، انت طاهرة القلب، والسماء تصغي الى ابتهال الطهارى !

واباحت لها الانطلاق في حقول التوت الواسعة تذكر فيها الله . وما توارت سلوى الا لتخلو بدمعها بامان . فلا تزعج به اهل البيت ولا الغرباء . أليس في ذرف الدمع بعض الراحة للمتعبين وهو يجلو عن اكبادهم الادران ؟

ووقع في اذن الجدة صدى خطوات على المصطبة ، امام الباب ، صدى خطوات رشيقه موزونة ، تشير الى نعمة وعزّ . فالتفتت الى الزائر المفاجىء وهي تختلج فضولاً . واذا بها تبصر فتاة غالت في تأنقها. فارتدت اجمل ثوب وبدت في أكمل زينة. وساعدها جمالها على الظهور فامست كأنها نفحة من نفحات الجنة في بلجة الربيع . وابتسمت للعجوز وقالت بلطف يسيل اخضلالاً : أتكونين ربة المنزل ؟

فتعجبت العجوز من هذه النغمة الحلوة، الوادعة، العطوف. فهي تعرف في بيت الدين فتيات متعددات من طراز المائلة حيالها ، الا انهن لا ينعمن عليها بنظرة كأنها لعين ورقة يابسة في مهب

الريح . هؤلاء بنات ارباب المناصب في دويلة لبنان . يرتدين الحرير ، ويأكلن الدجاج ، ويرقدن على فراش وثير ، ويغنين اناشيد الغرام . اما الالتفات الى المساكين فيعدو جهدهن ويئلم عجبهن . وما لهن ولهذه اللبكة وهن في غنية عن قلق البال ؟

وخيل اليها ان الزائرة جاءت تدعوها الى العمل في دارها ، فتغسل الثياب وتمسح الزجاج . ولكن الفتاة الروعاء تكلمت بلغة الرفق كأنها مضمدة الجراح . قالت : لاحت لي في منزلك فتاة تبكي ، أتكون ابنتك ؟

فحملقت العجوز في هذه الباحثة عن فتاة تبكي وقالت بجزع : لاحت لك في منزلي فتاة تبكي ؟... اين ؟... هل من مصاب ؟

ونادت باعلى صوتها : سلوى ، سلوى !

فاجابت الحفيدة : وما تريدين مني يا جدتي ؟

فصاحت مولولة : أتبكين يا روحي ؟

وركضت اليها لا تحفل بالسيدة الواقفة ازاءها . وشاهدت حفيدتها تنثر الدمع فارتعدت وقالت بصوت كالعواء : أتبكين ؟... ولماذا يا ابنتي ؟... هل من كارثة تلمّ بنا ؟

فاجتهدت الفتاة في الامساك عن النحيب . ومسحت دمعها بيديها وابتسمت لجدتها ، ولكنها ابتسامة الميت . قالت الجدة باضطراب : هل من اسمعك الكلمات القوارص ؟

فتولاها الخجل وهو على افراط فيها . ومالت الى النجاة من وقفتها كأنها ارتكبت وزراً . وخفضت بصرها وهي تجمجم : لا ، لا !

فصاحت الجدة حانقة : بلى ، ثمة من شتمك ، فمن هو ؟... قولي . من اساء اليك ؟

فاكتفت بان تعلن : اقبل وكيل الاسقف ...

فارتعشت الجدة وهي تسمع باسم وكيل الاسقف وسكن فورانها . ليست تجهل ما ينطوي عليه مجيء الوكيل من تهديد وصلف . فعلى العيلة البائسة ان تؤدي بدل الايجار ويدها خلو منه . وبدا الذل في الجدة كما وضح في الحفيدة . قالت العجوز تخاطب سلوى بألم ناخع : وهل اغلظ لك القول ؟

— هدد بالطرد من المنزل ان لم ندفع له بعد يومين !

فبلعت الجدة ريقها وجمدت مكانها كأنها أمست شجرة من تلك الاشجار الراسية في الحقل . قالت سلوى : ومن ابلغك اني ابكي ؟

— سيدة من كرام القوم لست اعرفها . اقبلت تستفسر عنك وفي يقيني انك منصرفة الى صلاتك !

فعبث بسلوى الفضول والكسوف . من هي السيدة ؟... والتفتت الى المصطبة فشاهدت الفتاة المتأنقة . وأدهشها منها انها تبتسم لها كأنها تعرفها . فملكت الحيرة سلوى . ماذا تريد منها

هذه الغريبة ، الحسنة الهندام، الممتلئة عافية ورونقاً، فهل لابنة النعمة والعز ان تلاطف ابنة الفقر والكوخ ؟... وانتاب العيّ والجمود سلوى الجندي . فاضحت لا تعرف ما تقول ولا تقوى على الحراك . أتسعى الى الزائرة الوافرة الاناقة تحييها ام تظل في حقل التوت كسيرة ، مشدوهة ؟

ونضت عنها ارتباكها واندفعت الى الزائرة الانوس بشدة ومضاء، كأن في عيني هذه الفاتنة قوة قاهرة تجرّ بها اليها كل من تجيل فيه بصرها . وانحنت سلوى كما انحنت من قبل جدتها . وقالت وحدقتاها لا تزالان حمراوين لفرط ما اذابتا من عصيرهما : اهلاً بسيدتي . كلنا في خدمتك . هل من رغبة نحققها ؟

فما انقطعت الزائرة عن الابتسام . وبحثت مقلتاها في حدقتي سلوى عن مصدر جزع ابنة الكوخ . أتبكي من القهر ، من العوز، من الخوف ؟... وابت ان تخاطب عفواً سلوى الجندي في ضيقها لئلا تمس شعور المسكينة وتجرح إباءها . فقالت تسلك الى هدفها التعاريج : جاءني انك تحسنين التطريز ، وانك دقيقة في مواعدك ، فهل يصدق فيك ما يروج عنك ؟

فاضاء نورٌ من الامل قلب سلوى وقالت في سرها : ما ضاعت عبراتي . اوفدت اليّ السماء من يؤدي بدل الايجار عني . شكراً لك ربي !

وما ضاقت عن البسمة وقد انفرجت بحافز الحمد والرجاء

ثناياها وأجابت بقولها : ليس لي ان امدح نفسي. ستبلوني سيدتي !

قالت ذات الاناقة : قرّ رأيي على ان اطرز لحطيبي بضعة عشر منديلاً ، وان اخيط له قمصان الحرير ، فهل لي ان استعين بكِ وموعدنا شهر من الزمن ؟

فخفق قلب سلوى خفقان البهجة . لطفت بها العناية ودرأت عنها الخطر . فلن تضطر الى الانتقال من المنزل بل ستبقى فيه وتؤدي الى وكيل الاسقف بدل الايجار. واجابت زائرتها الكريمة بصوت تغوم أشرق فيه الامل بعدما رمته فحمة اليأس بالبحة ، حتى وبالخفوت : سيدتي ، لن اتردد في انالتك الرغبة . سأطرز لك المناديل قبل الموعد المضروب واخيط القمصان . وستجدين في عملي ما يرضيك ، والا فليس لي ان اتقاضى بدل وكدي !

فابانت الفتاة ببسمتها الطافية ابداً على ثغرها كأنها مورد الرأفة : حدثني فريق غير قليل عن دقة خياطتك وتطريزك ، فما جئت لاختبارك وما اعرف عنك يكفيني ، على اني ألحّ في ان اتسلم في الموعد ما اطلب منك صنعه باتقان !

قالت سلوى وقد رأت فيها ملكاً حارساً يمسح الدمع ويدرأ النكبة : لن اتبطأ في تلبية مشيئتك !

وودت ان تطلب منها بعض الاجر للخلاص من نزق وكيل الاسقف المنتقم العاتي ، ولكن الحياء منعها من ابداء الطلب مع ان الطرد يرقبها . ولن تطرد وحدها ، بل سيشمل

المصاب جدتها واخويها . وحارت في موقفها . وظهرت حيرتها بجلاء. وتبينت الزائرة البارّة الارتباك ينطق في عيني سلوى مسترحماً بلجاجة فأبت ان تطيل عذاب المسكينة. وتناولت من مصانها ديناراً عثمانياً « ضرب في القسطنطينية » ونفحت به سلوى قائلة لها : اليك بهذه الدفعة الاولى !

فكأنها قبضت على حبل النجاة. ولولا الحياء لالتوت على يمين هذه الخيّرة تقبلها. دفعت عنها الشدّة والمعرة. وشكرت الطيف المؤاسي . وسألت متى تظفر بالنسيج لتبدأ العمل . فأجابت ذات اليد البيضاء : بعد غد !

وانصرفت وبسمة الرضى تختلج في فمها . قامت ببرة نديّة أنقذت بها عيلة بكاملها من الهلاك . وهي نهى داغر . وأبوها سليم داغر كاتب ديوان المحاسبة في لبنان . وصدقت في قولها انها مخطوبة وانها تطرز لخطيبها المناديل وتخيط القمصان . على انها لم تكن بحاجة الى من يسدّ مسدّها في هذا العمل وهي تجيده. ولكنها شاهدت سلوى تبكي فيما كانت تعود ورفيقاتها من الشالوف ، شلال الامير بشير، وسألت عن ابنة الكوخ وما بها ، فقيل لها انها بائسة ، مضطرة الى اعالة ذويها ولا تجد عملاً يدرّ عليها بما يكفيها

ونهى داغر شُغفت بالاحسان . ومما زادها اندفاعاً في اعمال الرحمة مرض خطيبها في مصر . فقد اصيب بالحمى . وجاءت

الانباء انه في خطر . فركضت نهى الى الكنائس تنير فيها الشموع . وتوفرت على الصدقة تبذلها بسخاء . وجاءها ان خطيبها تعافى ولم تفتر همتها . فما زالت تجود على المحاويج بما ينصرها عليه وسعها . ولاحت لها سلوى تذيب الدمع الشجيّ فرقّ لها قلبها واعتزمت أن تعود اليها لتضمد جراحها كأن الرفق يأبى الصدوف عن البأساء

وحملت في الموعد النسيج الى سلوى . وكان وكيل الاسقف قد أطل في ذلك النهار معقود الناصية فطفرت اليه سلوى الجندي تنفحه بالدينار . فتلاشى غضبه وقد تلألأ الذهب لعينيه . وابتسم للمعدن الأصفر ابتسامة لم يكن يقوى على حبسها وكلما أجهد نفسه في وقفها تمادت في الانبساط . قال وبسمته العريضة لا تمحى من وجهه : أرأيتِ يا ابنتي كيف تؤدين عندما تشائين ما عليك من حقوق؟... لما هددتك بالطرد أيقنت ان الامر جدّ واسرعتِ الى الاداء . عافاك الله . لا تدفعيني مرة اخرى الى الوعيد . هاتي البدل فوراً فارضى عنك، ويرضى الاسقف، ويرضى الله !

فاجابت بجدة : حسبي رضى الله !

فقطب وقال بامتعاض : ورضاي ألا تحفاين به ؟... ورضى سيدنا ألا شأن له عندك ؟... صدقتِ ، نحن من الكفرة وقد أمهلناك هذا الزمن كله . ولكن بقاءك لن يطول في هذا المقام !

وألقى يده الى شاربيه يعلن القسم : وحرمة هذين الشاربين ستلقين ما يطمئن اليه عجبك !

وصمم على الانتقام. وكان يغلي وهو يعود الى مقر الاسقف. وسألته احدى النساء وقد رأته مكفهر الوجه : ما بك على نقمة يا سيدنا الوكيل ؟

فالتفت اليها بعينين عابستين وزفر طويلاً وقال : بي ان فئة من الانذال باتت لا تعرف قدرها يا ام فارس. نلاطفها فتكافئنا بالعض والنهش !

وابتعد وهو يدمدم على هؤلاء المنتفخين وهم يقتعدون التراب: سيدنا أطلق يدي في شؤون املاكه ، فمن حقي ان أطرد اي مستأجر كان دون ان ألقى اعتراضاً. وسلوى هذه سأطردها قبل الجميع. فلست أدري ما يدعوها الى التشامخ عليّ وكانت لأيام خلت تدوب ضراعة. انها لدنيئة المخبر كالبغل الشموس. سيدنا سيصفح عني في تأديبها !

وتابع طريقه وهو في عربدة . قالت ام فارس تسخر به بخبثها العضوض : الغضب دينه وديدنه . اذا ضحك فعليه ان يغضب . واذا أكل وشرب فلا بد له من غضبة. ولست أدري كيف يطيقه الاسقف وهو يملك هـــذا الشذوذ . فهل لقيت القدر غطاءها ؟

*

عكفت سلوى الجندي على القمصان تخيطها وعلى المناديل تطرزها . واغتبطت برحمة الله الواسعة وما تضن على الدودة في الصخر بغذائها . وانتشرت البهجة في الكوخ . باتت العيلة المعسرة بنجوة لبعض الحين من غدر الزمن ، وهو حسبها . وفي الموعد حملت سلوى الى الآنسة نهى داغر ما خاطت وما طرّزت تقول لها بارتياح الى الحذق في الصنعة والبرّ في الوعد : هل يرضيك السعي ؟

فاعجبت نهى بالمهارة وبالدقة وابانت بمسرة: انك لعلى براعة في حرفتك يا سلوى . لك التهنئة الخالصة !

ونفحتها بما بقي لها . ودعت رفيقاتها الى اعتماد سلوى الجندي في ما يحتجن اليه من افانين الخياطة والتطريز قائلة لهن: لن تجدن أفضل منها !

وتعاظم الاقبال على سلوى . وأمنت شر وكيل الاسقف بانتقالها من الكوخ الى منزل رحيب لا يتنكر لبقية من نعمة . على ان الثواء ببيت الدين في فصل الرياح والامطار عاطل من الجدوى ، فصممت الخيّاطة الناشطة في قهر الشدّة على اللحاق بدواوين الحكم . فتقيم في بعبدا شتاء وفي بيت الدين صيفاً كأرباب المناصب أنفسهم . ولا بد أن تتوافر المغانم فتنفق منها

سلوى على تعليم أخويها ولا تخسر زبنها

ولمع ذكاء الغلامين في الغوص على المعرفة . وشاق الفتاة ان مجهودها لم يكن هباءة

وما نسيت نهى داغر وهي المنقذة ، ولا وكيل الاسقف الكالح الوجه . وسرّها ان تنجو من سلطانه عليها وقد استقرّت ببيت لا يمتد اليه أنف الوكيل المتفوّق في الضخامة والشمّ ...

*

١٩١٤

ها هي ذي الحرب تشمر عن ساقها . وساق الحرب ليست من لحم ودم، بل من حديد ونار . وما هي بالجميلة الصقل كساق معظم الحسان ، بل خشنة تبدو فيها النواتىء والحفر وتنذر بالويلات والشرور

وسلوى الجندي كانت في بيت الدين يوم أُعلنت الحرب الكبرى . وكلهم قال يومذاك ان الحرب ستنتهي في شهرين . واذا طال أجلها وقفت بعد أشهر ثلاثة . على ان الحرب لم تشأ أن تنتهي . فانقضى الشهر والشهران والاشهر الثلاثة وهي ما تزال مضطرمة السعير . وانتقل مقر الحكم الى بعبدا والحرب يشتدّ منها اللظى . وبدأ الناس يتخوفون . وتفاقمت التهاويل يوم وثبت تركيا الى فوهة البركان تناصر المانيا . فالمستظلون اللواء العثماني ادركهم الرعب وما كانوا يرقبون فوز النسر الالماني والحلفاء

يطوّقونه من جوانبه جمعاء، والعالم بأسره يظاهر فرنسا وانكلترا وروسيا

ولاحت لهم في الوثبة مجازفة غير محمودة . وقالوا فيما بينهم ان ثمة مكيدة منظمة يحاول بها قائد الجيش العثماني ، انور باشا ، ركوب عرش السلاطين، وان غليوم الثاني امبراطور المانيا وعده بتحقيق الامنية يوم الانتصار الاغرّ

وأمست بعبدا ميداناً للعنف التركي. وقام في عاليه ديوان عرفي لمحاكمة العرب . وانبثت الجواسيس في كل مكان. واصبح الاب يخشى ان يتلفظ بكلمة تبعث على الريب حتى على مسمع من ابنه . وبات الناس ذئاباً ينهش احدهم الآخر

وفي هذه البيئة الجهمة عاشت سلوى الجندي. فاحتلت قوة من الجيش العثماني بعبدا وتولت حفر الخنادق في القمة المكللة جبين البلدة . وأمسى الاهلون في وجل يرقبون بين يوم وآخر ان يدهمهم العثمانيون ويعبثوا بهم، ويقودوا شبانهم الى المعاقل او صفوف النار . وارتاعت سلوى وهي تفكر في اخويها. أتجاهد في سبيلهما هذه المجاهدة السبوح لتسلبها اياهما الدولة العثمانية ؟

وحارت في ما تقدم عليه لوفايتهما. واستشارت في الامر نهى داغر . وأي رأي تقوى نهى على ابدائه وهي نفسها حائرة؟... فالذعر يملك لب أبيها . وأبوها من أنصار الدولة الروسية في لبنان . فهو ارثوذكسي المذهب . والارثوذكس يؤيدون روسيا

كما يؤيد الدروز انكلترا، والموارنة والروم الكاثوليك فرنسا، كأن لبنان صورة مصغرة عن الحلفاء. والدولة العثمانية ما خفي عليها موقف لبنان منها. فهو قذى في عينها. وأجمعت على تدويخه بتجويعه وما يذل غير الجوعان. قالت نهى تخفف عن سلوى في اخويها: صبراً، علينا ان نرقب ما يكون!

وما اخفت عنها ما ينتاب اباها من قلق وقد لمس الكيد في ما تبطن الدولة العثمانية من نيات. ومال الى الفرار. ولكن اين السبيل اليه وابواب البحر مقفلة، والقفار غير مأمونة، والسن تنذر بالعياء؟

وصدق وَجْس سليم داغر. فاعتقل الجيش العثماني في ليلة ليلاء، مزمجرة، صبّت فيها السماء ويلاتها على الارض، كبار ارباب المناصب في لبنان. ولكن الى اين يزجهم؟... سكوت. ودب الذعر الى الافئدة. أالى الاعواد ام الى المنافي؟... والتقوا عشرة في قطار ونظر بعضهم الى بعض بدهش: انت؟... وانت؟... وانت؟

وتساءلوا برهبة: الى اين؟

وعبث الاصفرار بالوجوه. ولكنهم أبرياء. ماذا جنوا؟... ابرياء؟... لا، بل جناة. فما اخلصوا للدولة العثمانية. وطفافة الاخلاص فيهم قادتهم الى هذا الطريق المجهول، القاتم، الجمّ الويل، وقد ينتهي بهم الى القبر

والقبر لا تشتهيه النفوس المتمسكة بآمال لا تود الانسلاخ

منها. وجلس العشرة بين العشرات من الجنود ممن يلمع في صدورهم الرصاص كأنه عيون المنية، وتتدلى الى جوانبهم الحراب المسنونة، وترسو في اكتافهم بندقيات تحمل في احشائها نفثة الهلاك

وتحرك القطار. ولم يكن للمعتقلين سوى لفائف التبغ يدخنونها وهم في تفكير وسهوم. ويختلسون أحياناً النظرات. وربما شعروا ببعض العزاء وهم عشرة. فيرقب الواحد ما يرقب الآخر.. ولكن العزاء لا يمحو المصاب. وتناسى كلهم رفيقه ليلتفت الى نفسه. وتابع القطار مسيره وهم لا يدرون الى يسير. وتراءت لهم في موجات دخان اللفائف المتصاعدة من أفواههم ولفائفهم اشباح راعبة، اشباح المقصلة وقطوب جمال باشا الطاغية الجبار

جمال باشا !... يا للاسم الرهيب. غولٌ فاغر الشدقين تنحني امامه الرؤوس وهو الوالغ في الدم. فكأنه المنجل الحاصد. واتسعت المخيلات في تجسيم الاهوال. وكان للمقصلة النصيب الاوفى من الخواطر فتمثلتها تتدحرج عنها مئات الجماجم، بل الوف الجماجم كأن الطاغية يشتاق ان يقيم طوداً من الهامات

وما استفاق موكب الجزع من البحران المستولي عليه الا وقد بلغ القطار محطة عاليه. وما كانت اليقظة لوقوف القطار والموت يرفرف عليه سواء جمد او سار، بل لظهور وجه آخر يتجلى فيه العتوّ والبطش. هذا علي رضا بك وليّ الديوان

العرفي، ديوان ضرب الاعناق، وقد احتل بفرقته الثالثة والاربعين جبل لبنان . وانه لصنو جمال باشا في النقمة وان يكن دونه رتبة. فنهضوا له جميعاً يؤدون التحية بوجوه صفر، زرق، مبرقشة، وبنظرات بين مستعطفة وحاقدة. فقال بلهجة حاسمة، جافية كوجهه الدميم: ايها السادة ، قضى صاحب الدولة احمد جمال باشا بنفيكم الى القدس لاتقاء شركم. فانتم الآن من المعتقلين وعليكم بالطاعة اذا شئتم ان تسلم رؤوسكم. ولقد اذعت في قواتي ضرورة تأمين رحيلكم . استودعكم الله !

فسقطت كلماته على اليوافيخ كضربات المطرقة. الى القدس. وماذا يرقبهم فيها ؟... فهل لهم اذا ساروا اليها ان يعودوا منها؟... وارتجفت قلوبهم. ربما كان الموت ينتظرهم في بلد المعجزات

وضحكوا فيما بينهم وبين انفسهم وهم يذكرون محاولة «اتقاء شرهم» . فماذا يخشى منهم ؟... اي ثورة ؟... اي دعوة الى العصيان ؟... ليس يخفى عليهم كيف ترتفع المشانق وتتدلى عليها الاجساد، ولن يخطر لهم في بال ان يكونوا من ضحاياها

وحنوا رقابهم للارادة القاهرة. الى القدس. وما تخلف سليم داغر عن الكومة، سليم الرجل الارثوذكسي الرافع في قلبه لواء روسيا. على انه مال الى الازراء بالهلع وابداء رباطة الجأش. ولكن صدوفه عن ابنته اقلقه . فماذا سوف يلمّ بنهى وقد رحل عنها؟

لقد حال البحر المقفل بينها وبين خطيبها. وسلبها المنفى أباها.

فمن بقي لها ؟ ... هناك امها ، على ان امها . مقعدة لا تقوى على براح الفراش . ولولا نهى لماتت . فاحسنت ابنتها معاملتها واكرمت مثواها . والآن ، فيما القطار يقل سليم داغر الى القدس ، والمهابة منشورة الملاءة ، والأسى على اندلاع ، جلست الام الى ابنتها تنتحبان معاً وقد خشيتا ان يقود الجند الى الموت معيلها . ومن يعطف عليهما والركن ينهار ؟

ولم ترهبا نفاد الذخر ولديهما منه ما يكفيهما ، بل رهبتا ألا تعودا فتبصرا واهب هذا الذخر وهو صريع كيد الدهر

وبما اثخن في ترويعهما ان يتحامى الاصدقاء والجيران التردد اليهما وقد نفي حاميهما . والناس مفطورون على الخوف ، وكلهم يرهب الظلم ويعمل بالحكمة القائلة : « عند انقلاب الدول احفظ رأسك ! »

ولم تجد نهى وامها غير سلوى الجندي وأخويها وجدتهم يهرعون اليهما في ايام نكبتهما . فهم صباح مساء في دارهما يتهالكون على المساعدة والخدمة . فشكرت نهى وعرفت في من أنقذتهم من البؤس وفور الاخلاص . وكم أنقذت سواهم فوأدوا الجميل كأنه كابوس تنوء به الاضلاع

وتعانقت نهى وسلوى وهما تبكيان . قالت سلوى : أنت منقذتنا من الهلاك . وفضلك علينا لن نقوى على وفائه ما حيينا . ولسنا نتفادى من الاقرار به في بذل الارواح !

فراعت الاريحية نهى وقد احست بها ان سلوى رجحتها في كفة المبرة . فقالت وهي تعود الى معانقتها : التفاتكم الينا في محنتنا هو من المعروف طفاحه . ويسرني ان ادعوكِ بعد اليوم شقيقتي وان ارى في أخويك أخوين لنهى داغر المحرومة الاشقاء. وجلّ ما اطلب منكم ان لا تقطعوا إخاءنا . فنراكم حيناً بعد حين بيننا ولم يبقَ لنا سواكم في الفاجعة النازلة بنا !

وكانت تتكلم والدمع يترقرق حسيراً في عينيها . وبكى لبكائها الجميع. فلم يكن ثمة غير مقلٍ تكتوي بعبراتها. وهمست سلوى في اذن نهى: اتسع لي أن أجمع من عملي نحواً من مئتي دينار ، فاذا كنتِ بحاجة اليها فهي في جيبي !

فاكبرت نهى تليد النبل في سلوى الجندي ، في ابنة الكوخ والاملاق ، وهتفت بفائق الاعجاب : سلوى ، سلوى ، يخيل اليّ ان دم الملوك يجري في عروقك . اراني بعدما سمعت منك مدينة لكِ بالفضل الاشمّ !

واستطالت في البكاء ووجهها الى كتف سلوى وهي تقول: اود ان لا تفترقي عني ، فنقيم ابداً تحت سقف واحد، وانى أقع في من سواك على مثل هذه المروءة الريّا ؟

فأبانت سلوى وهي تبكي مثلها والفاظها يبللها الدمع : سأكون ابداً بين يديك . لن ابتعد عنك وعليّ ان اقاسمك البرحاء . وفي المقاسمة يهون الاحتمال !

وبدت مثال الخلق اليافع : ولمست فيها نهى داغر نفساً وافرة الاباء . وكتبت الى ابيها تحدثه عما لقيت في سلوى من عطف. فأرسل الأب يشكر لسلوى رفقها بامرأته وبابنته ويعدها بالمكافأة يوم يعود . وشاء حظه ان يعود . فضمّ سلوى وقبلها قبل ان يضم ابنته اليه . ولكن عودته لم تكن الى زمن طويل. فهاج هائج الدولة العثمانية مرة اخرى — وليس للقلب المبطّن بالغلّ ان يصفو — وعادت فقبضت على من أقصتهم الى القدس لتدفعهم قوافل مبعثرة، مكدودة ، إلى الأناضول. بل هي امعنت في اقصاء الناس. فالعشرة أمسوا مئات، والمئات ألوفاً. ومشت زهرة ابناء البلاد الى مجاهل الاناضول تعاني مرارة الاضطهاد وتقاسي لؤم الضيم. ودرج سليم داغر في نظيرة المعتقلين وبجانبه امرأته وابنته المتسائلتان عن مدى جريرتهما. وقطع المبعدون كل أمل من العودة وقد طرق آذانهم نبأ مذابح الارمن في الولايات العثمانية الشرقية . فتراءى لهم انهم لاحقون بمن هشمتهم الفؤوس . وثووا بالمنفى والاسى في قلوبهم، والاضطراب في بصائرهم . فالموت يلمع منذراً بالغروب

وودعت نهى داغر صديقتها سلوى الجندي والعبرات تسد عليهما مجرى الكلام . فالفراق يزجر نمراً قاطع الناب. واشتدت ويلات الحرب باستحكام المجاعة واضحى رطل الطحين في سوريا ولبنان، وخصوصاً في لبنان، يعدل وزنه ذهباً . وامتلأت الطرق

بضحايا الجوع. اجساد سود، متورمة، متقرحة، تتظلم. من يردّ عليها الروح برغيف، بلقمة ؟... فتصامّ ذوو الأسماع. ليس للذئب ان ينصر أخاه. وبات لبنان مقبرة تتكردس فيها لدى كل صباح الجثث بالمئات. جثث لا تجد من يكفنها ولا من يمشي في جنازتها وقد تبرأ منها الأحياء. وضنّ عليها القدر بتابوت فما يزجيها الى حفرة الاشلاء سوى حملة السلالم، وقد كلفهم الولاة مهمة دفن الاموات كحرفة للارتزاق. ولو خاض لبنان الحرب لكانت خسائر الارواح دون ضحايا الجوع. فالمجاعة، وقد جبهت بها الدولة العثمانية اللبنانيين انتقاماً، بدت اشدّ هولاً من فتكات المدفع والرصاص. فاللبناني كان يموت ولا يعرف عدوّاً يصارعه الا الرغيف الهارب منه

*

لم تبقِ الحرب على وجاهة وعز. فكأنها تناولت الارض بيديها وطحنتها ثم جبلتها على هواها. فالوادي امسى جبلاً، والجبل سهلاً، والسهل اغواراً ومنحدرات. فالعزيز المنيع ذهبت عنه منعته. والحقير المنبوذ علت مرتبته كأن العالم بات غير العالم. فارتقى الوضيع وذلّ الكريم

بيد ان هذه المكنسة الهائلة، وقد فشّ بها إله الحرب المهيج كأنه يجرف أكوام الأدران، حلّ بها أخيراً الكلال. فذابت

نواتئها ووهن الساعد القابض عليها فأفلتها عن ملل وعياء

ولم يكن الناس يصدقون انهم نجوا من أهوال الهيجاء وقد نظر بعضهم الى بعض على شك وحيرة وهم يأذنون بالانفلات . فما آمنوا بكونهم خلصوا من المكاره حتى علت صيحات الفرح المجنون تهزّ القطبين

واعتكف من سلموا من غدر النائبة على التهام الملذات بلا تؤدة . فهم يلتمسون النسيان وقد تعبّدتهم شدائد الحرب الفواحم أربعة أعوام بلياليها يعانون نيرها القاصم بلا ونية ولا رفق. ففاصوا على الخمرة والغناء والرقص كأنهم يبعثون احياء، بل كأنهم لم يشعروا بالوجود الا وقد انطفأت آخر رصاصة في ميادين القتال

وعاد المعتقلون الى اوطانهم . بيد ان نهى داغر لم ترجع . فمات ابوها وبقيت امها . وابلغها الاطباء ان هذه الام المقعدة لا تقوى على العودة الى لبنان والحياة فيها واهية الركن، وربما اختطفها الموت في الطريق

واضطرت الفتاة الى ملازمة امها في مرسين . وكتبت الى خطيبها تبشره بيوم السلامة. فما اجابها . فسألت عنه أهله فما استطاعوا ان يوضحوا لها امره وقد ماتوا. والشاب طالع في الصحف ان سليم داغر اعتقلته الدولة العثمانية مع امرأته وابنته واقصتهم الى الاناضول توردهم الحتوف، فجزع وهجر مصر الى جنوبي افريقيا يائساً من نعيمه ، باكياً نهى بدمع ودم

ولم تبق سلوى الجندي في بعبدا وقد هجعت الحرب ، بل انحدرت الى بيروت تشتغل فيها . وبيروت بعد جلاء الدولة العثمانية اضحت موئل اللبنانيين. فنفروا اليها من قممهم ينهلون من ينابيعها . وامتلأت بجموعهم حتى كادت تضيق . على انها تأخذ ما تعطيهم وليس من السهولة انتزاع مالها منها الا بمقدار

واشتغلت سلوى الجندي في بيروت بالخياطة والتطريز وحشدت الارباح الجسام . فلم يكن من وزن للمال بعد الحرب وقد كفى الناس ان يسلموا. فتدفق النضار بعد نضوب سيولاً منهمرة. وقد فاضت به السواقي والغدران وطغى على السبل فالتقطته الأيدي وداسته النعال . وما على الغانم الا الاكتناز . وسلوى عرفت كيف تحبس أرباحها فما جازفت بها وقد خبرت ما يقاسي المملقون من أوجاع

واتصل بالمهاجرين اي نعيم غرق فيه لبنان فاقبلوا من ديار غربتهم الواحد تلو الآخر يحملون الذهب بالأخياش. فالمكاسب تعاظمت في الديار المعتزلة الحرب بما لم يتفق لها ان ظفرت بمثله في سائر الأزمان

والزواج اول ما يفكر فيه المهاجر وهو يعود مما وراء البحار . وقد يكون تزوّج في المهجر ، ورُزق الاولاد . فينسى من أبقى وراءه ويبحث عن ابنة حلال، حلوة، ابنة بيت. ولا يشعر بنو قومه بخدعته الا وما فات فات !

وسلوى الجندي أضحت في عمر الزواج . وما عدمت طلابا يلتمسون ودها. على انها ما اختارت وما زال قلبها في الهوى على فاتر الخفقان. ومقرها في بيروت على مقربة من ساحة الشهداء ، قبالة نزل الشرق. وتضايقت ممن يرتادون النزل وبعضهم يقف في الشرفة المطلة على حجرات الفتاة ليجيل فيها باصرتيه وفي هؤلاء المشتغلات لديها، المنصرفات الى تحصيل معاشهن. وخطر لسلوى ان تنتقل من هذا المقر لولا خشيتها من خسارة زبنها وقد يضيعون عنها

والشائع عن الخياطات – وقد يكون في الاشاعة بعض غلو – ان قلوبهن متعطشة أبداً الى الولوع. فينهدن اليه على لاعج الصبوة، وخصوصاً الحسان فيهن وهن عرضة لهجمات طلاب الوصال

وضيوف نزل الشرق في بيروت ظنوا انفسهم حيال لقطة ميسورة وهم يرشقون حجرات سلوى الجندي بنظراتهم الهائمة . وما علموا انهم ازاء مناعة لا تنتهك. واضطرت سلوى الى قفل نوافذ حجراتها بوجوههم كي تصدهم عنها . بيد ان النفرة زادت في اللجاجة وفي الممانعة استهواء

فأبى شاب على وسامة واناقة ان يتزحزح عن تصويب عينيه الى مثوى الخياطة . ولم يكن يلتفت الى المساعدات مع وفر جمالهن ، بل الى سلوى نفسها وقد أعجبته قسامتها . فتوارت وقد شعرت بـه . على ان بهاءه ورزانته أهابا بها على رغمها الى مسارقته النظر لماماً كأن المنازع على استئناس

ولاحظت عليه انه حزين، وان في وجهه مسحة أمل ضائع. على انه لا يكاد يحس منها بلفتة اليه حتى يجتهد في ان يزيل عنه المضض الراسي في حوانيه

وكل سعي منها للميل به عن وقفته امعن في ترسيخ قدمه. فلن ينأى عن مشهد ينشط له. وسأل صاحب النزل عن الخياطة فعلم منه انها سلوى الجندي. ذات سمعة حسنة ودخل راجح. تكاثر عليها طلاب الزواج فما اختارت صاحب الحظ. فهتف المستنبىء بشوق ترهفه وضاءة الدخلة: أترضى بي؟

فحدق اليه صاحب النزل يلمس فيه مدى الرغبة وقال: ان تكن تميل حقاً اليها خاطبتها في امرك بنفسي!

– ارجو ان تفعل!

وشاع في كلماته بريق الهيام والسؤال. قال صاحب النزل يتحرّز: غير اني لا أضمن لك النجاح وكل ما عليّ ان احدثها في ما تبتغي منها. فاذا رضيت بك كنت ميمون الطالع، والا فعفواً. غداً سأكون لديها واحاول ان استميلها اليك!

وانجز صاحب النزل وعده. فدخل على سلوى الجندي يوضح لها مطلب ضيفه. قال: شاب ضخم الثروة، وافر الحشمة، حسن الطلعة، فاذا قرنت مصيرك بمصيره عشتما سعيدين!

فقالت سلوى تستقصي: ومن هو؟

– وهيب الوردي، ابن أسرة ذات مقام وفضل!

فاطرقت وما لبثت ان قالت : عليّ ان انظر في الامر !

– وبمَ اجيبه ؟

– دعني ابحث عن حاضره وماضيه !

– أليس من كلمة قاطعة احملها اليه ؟

– سأقول بعد يومين كلمتي !

ولم يكن للأخذ والرد مجال. فانصرف صاحب النزل يصارح ضيفه بما سمع. فقال الضيف: وهل يحتاج استطلاع موقفي اليومين؟

وتاق الى الاستئثار عاجلاً بها . وكان قد توهم ان الحب لن يبعث في قلبه ، فأخطأ التقدير . فالحب ليس ذرارة تجفّ وتموت والحياة فيها على اتقاد . انه ليهجع، ولكنه لا يفنى

واستطاع أن ينتظر يومين على مضّ القلق والحيرة . أترضى به فيخطبها وهناً ، أم تغضي عنه فتدمغه ويقنط ؟ ... وبدا تائه النظر ، ثقيل الرأس كأن في رأسه ثلالاً هادراً . ما أنكد الانتظار !

وأسرع في الموعد الى صاحب النزل يقول : أزفت الساعة، فما هو الجواب ؟

وابتسمت سلوى لصاحب النزل وهو يعود اليها . ومن ابتسامتها أيقن انه لن يخيب . فالحاجة مقضية . قال مستبشراً خيراً : ماذا ؟

قالت : أتضمن لي انه من كرام الناس ؟

– انا العهيد الضمين !

– بوسعه اذاً ان يجيء !

وكانت صريحة في منطقها. فليأت ما دام كريم الطبع. ووقع الخبر على وهيب الورديّ كالبلسم على كاوي الجرح . سلوى الجندي لا تمانع في ان تكون له . وركض اليها وكاد ييأس . وصافحها بشغف واجلال . ولقي منها البشاشة فازداد هياماً . قال بلا تردد ولا تعريج : انا بين يديكِ دماً وروحاً . تراءى لي ان الحب مات في قلبي ، على أنك ملتِ بي الى اليقين انه ما زال على لهب. أحببتك وسأحبك . ولست أراني غريباً عنك وكأني أعرفك منذ البدء . وألتمس ألا تكوني غريبة عني وهو جلّ ما أطمع فيه !

فلقيت منه صدقاً واخلاصاً فوهبت له قلبها وايمانها . اعطى وأخذ . ولم يطل عهد الخطبة . فانقضى كالتهويمة. ونزع الحبيبان الى الزواج بعدّان له العدة. واستوضحت سلوى وهيباً سرّه. لماذا يبدو لها أحياناً على اكتئاب ، وكيف مات في صدره الحب ثم عاش ؟... فطلب اليها بضراعة المستعطف ان تبيح له الامساك عن الافشاء صوناً لذكرى عزيزة. كل ما يعرف الآن انه يهواها ، ويريد أن ينسى يهواها ماضيه . كأنه بُعث بعد وأد طويل

فاكرمت مشيئته وتحامت محادثته في سره الدفين . فليس لها ان تنبش ماضيها ، ولن تحمله على رفع الغطاء عن فارط عهده

والامس وديعة الضريح . وجاءها من يد طفحى بما تتوفر به على جهاز عرسها . لتكن مثالاً في البذخ المنيف

وانشأ له عملاً واسع الأمد تولاه أخواها. أما جدتها فاقتعدت الزاوية وقد عبث بها الخرف . فما تنطق بسوى الخليط والزمن الهادم لوى فيها اصالة الرأي . ولم يبقَ على سلوى من جهازها ما يعوقها عن اعلان موعد العرس . فالثوب الابيض ، الفضفاض الذيل ، خاطته رائعة من روائع الكسوة وهي الصناع اليدين

وأهدى اليها وهيب خواتم الماس، وأساور الذهب، والعقود. ووزعت الدعوات على الاصدقاء . بعد غد الفرحة المتوف

ووقع في مسمع سلوى دقّ بالباب فيما تنجز احدى غلائلها . وقيل لها ان سيدة تستأذن عليها فأطلت بنفسها ترحب بالقادمة . واذا بها تقف مدهوشة لا تصدق عينيها وتغمغم غمغمة الارتياب: نهى ؟

فكأنها لا تعتقد ان من تناديها بهذا الاسم تتمتع بالحياة . فأجابت الزائرة بحماسة ترين عليها اللهفة : اني هي يا سلوى !

وكانت نهى داغر ، ابنة سليم داغر المستأثر به الموت في المنفى . وما كان لامها ان تنجو من الشبح اللهوم فطواها زاداً للقبور. وأقبلت الابنة الى بيروت وحيدة، مقصوصة الجناحين، ترتدي الثياب السود

ووثبت اليها سلوى تعانقها معانقة الفجر للبكور . ففتحت

لها نهى ذراعيها بغبطة ومودة وقد طالت النوى وبرّح الشوق بالضلوع . وتمتما كلمات الالفة والمخالصة . قالت سلوى : ما هذه الغيبة الشرود ؟... حسبتك لن تعودي . لماذا لم تكتبي اليّ وقد خيّل الينا انك أُصبت بويل جسيم؟... ثم أنت ترتدين الثوب الأسود ، فما دهاكِ ؟... ما بكِ تبكين ؟

فتناولت من كمها منديلها الفاحم الاطار تمسح به دمعها الهتون. وقالت بصوت ملتاع: ذهب الاثنان يا سلوى، أبي وأمي. ليتني أستطيع اللحاق بهما . وخطيبي مجهول المقرّ . أكاتبه فلا يصل اليّ جوابه . وقد يكون... مات . فالحرب قست على الارواح وأمعنت في التشذيب !

وانهمرت عبراتها. ان يكن خطيبها مات فلماذا تعيش ؟... فجزعت سلوى وطلبت الى ذات النواح ان تهدأ . فالبكاء لا يفيد. قالت نهى وهي تشرق بدمعها: بل دعيني أطلق عبراتي. أراها عبئاً ثقيلاً عليّ وهي محبوسة في ضميري. وأنتِ، ماذا اتفق لك وقد بحثت عنك طويلاً في بعبدا حتى اهتديت اليكِ في بيروت؟

فلم تكن تنزع الى الكشف عن مسرتها على مرأى من التاعسين لولا يقينها بنقاوة مهجة نهى من الغيرة والحسد . قالت وهي تحاذر الاثخان في الايلام : انا في صفاء يا اختي . ارجو لك حظاً كحظي !

ـ هنيئاً لكِ !

– أصبحت على وشك الزواج . وخطيبي ممن ينالون اعجابك!

فجمجمت ولا بد للفضول من انتفاضة يستطلع بها ويستقصي: أيكون شاباً ؟

– شاب وجميل. وبين يديه ثروة، وفي صدره حب وصدق!

فلم تمتعض نهى داغر وقلبها بريء من الغلّ ، بل فرحت وقالت: يسرني ان أسمع الأنباء السارّة عنك. فمن يكون خطيبك؟

– وهيب الوردي !

– لست أعرفه !

– مهاجر عاد الى الوطن في قافلة العائدين . سترينه ويطرق اذنيك حديثه الشائق . فهو من الأذكياء المتعلمين !

فابدت نهى الارتياح والمسرة والبيان العذب يسقط اليها . وودت ان ترى خطيب صديقتها لتهنئه بسلوى كما هنأت سلوى به . قالت والفضول يأبى الاكتفاء : أيحبكِ ؟

– حبه لي على استفاضة وقد وقف عليّ قلبه وماله . فيزعجه ان يراني متأففة . ومنعني من العمل . وانشأ تجارة رابحة عهد فيها الى شقيقيّ . وموعد زواجنا بعد غد !

– بعد غد ؟... اذن جئت في الموعد . وانت ، أتحبينه ؟

فتورد خداها وهمهمت وهي تبتسم: انا منه على مفرط الولوع!

وشعرت بمتعة الحنين وهي تفضي بمنازعها . فارتاحت نهى الى السعادة المنشورة الظلال وتذكرت خطيبها فكادت تبكي.

الا ان الموقف لا يجيز الحسرة . فقالت وهي تغالب نفسها على الاغتباط ودفع الغمة : سلوى ، ملأتِ قلبي بهجة يا اختي ، أدعو لك بدوام النعمى !

وقبلتها قبلة الاخلاص . وروت لها ما لقيت في المنفى من صدمات . كيف مات أبوها ولم تجد من يعزيها . وكيف ماتت امها دون ان يتأثر احد لمصابها ، كأن دجاجة ذُبحت او عصفوراً وقع بنبلة عارضة . ولما اخذت تعدد امها وقف الناس ينظرون اليها غير مبالين وليسوا يدرون ما تقول . فما شاركها أحد في لوعتها غير امرأة عجوز كانت تتولى خدمتها . وجمجمت بأنّة مختنقة : الويل للغريب !

ولم تقوَ على امتلاك دمعها . وسلوى عجزت عن حبس عبرة طفرت الى أهدابها . فبكت الاثنتان تكتويان بصادق الحرقة . قالت نهى : وجدتكِ ، أين هي ؟

فأجابت : في حجرتها . فهي مصابة بالشلل لا تقوى على براح الفراش . وعدا عليها الهذيان فحرمها الهدى !

فاشفقت عليها نهى وقالت متوجعة : مسكينة ، كنت اريدها على إلمام بما صارت حفيدتها اليه من رفاه !

ودخلت على العجوز تتبرك بتقبيل يديها . ففي هؤلاء الطاعنين في السن قبس من نور السماء . ولكن جدة سلوى الضائعة عن نفسها لم تعرف نهى داغر وقد تنكرت لها الأخيلة والوجوه . فنظرت

اليها تقول : من أنتِ ؟... لست أعرفك. بلى، بلى ، انتِ ... انتِ جميلة الديرانية المشتغلة بالامس لدى ابنتي سلوى . آه كم تبدلت . كيف حال زوجك ؟... كنت أبلغتني انه غضبان !

فارتعشت نهى وتهيبت مرأى العجوز الخبلاء . قالت سلوى: لا تجيبيها . فهي لا تدري ما تقول . ان يكن مرآها يزعجك فلننصرف عنها !

فقالت متفجعة على الهدى المقهور : بل يطيب لي ان اراها يا سلوى . فاني اتذكر بها الماضي البهيج . ويلوح لي منها انها ستعيش طويلاً . أيضايقك هذيانها ؟

ـ لا ، هي أبداً في هدوء . واني لاجالسها أحياناً فلا أسمع منها كلمة شاذة . فالهذيان يسكن لهنيهات فيها !

فودّعت نهى ابنة التسعين وهمّت بالرحيل . بيد ان العجوز استوقفتها هاتفة بها : أوصيك خيراً بسلوى . لا أراك سليمة النية حيالها !

فارتعدت الاثنتان معاً، سلوى ونهى، وهما تسمعان الجدة الحرقاء تتلفظ بكلماتها القواصم . فما دعاها الى النطق بهذه الدوامي؟... قالت سلوى تعتذر لرفيقتها عن رمية بلا رامٍ : لا تحفلي بترهاتها . هذه ساعة الهذيان !

فارتجفت نهى وقالت بمرارة: ولكن هذيانها أليم يا أختي !

*

– ها هوذا خطيبي يا نهى . هذا وهيب الوردي !

وأشارت اليه وقد بدا بالباب . وخاطبته بقولها : وهيب ، أعرّفك بمثال النبل والمروءة، بالطهر الناصع والاخلاص الأوفى ، بصديقتي الحبيبة الآنسة نهى داغر، الكريمة ابنة الكرام !

ووهيب لاح لهما يحمل طاقة من الزهر وهو من الابتسام على سعة وارفة. وما أبصر نهى في منزله، وسمع خطيبته تعلن اسم الفتاة ، حتى جمد في مكانه وارتجفت يده فسقطت منها طاقة الزهر وعلا وجهه الاصفرار. فارتاعت سلوى وصاحت بوهلة خالعة : وهيب ، وهيب ، ما بك يا حبيبي ؟

وخافت عليه ان يسقط الى الارض . فماذا دهمه ؟... اي داء اعتراه ؟... أيقع ويغمى عليه ؟... وكادت تصيح بالخدم : الطبيب ، الطبيب !

وحانت منها التفاتة الى نهى فاذا بها ترتجف مثله ، واذا الشحوب يستولي على قسامتها . فذعرت سلوى الجندي وصاحت بمستطير البهت : نهى، وانتِ ايضاً ، أنتِ ؟

ولم تفهم . فما تكلم وهيب ولا تكلمت نهى . ووقفت سلوى بينهما وهي تكاد تجن . ما هذه الأحاجي ؟... اي كارثة تلوح لعينيها ؟...واسترحمت الالمام بالخفي . واذا بوهيب يغمغم

وهو لا يبرح شاخصاً بعينيه الى نهى داغر : جاءني انك اختصرت الطريق الى العالم الآخر . فمن اي دنيا أقبلتِ ؟... هل قيل لك أني هنا ... واني ...

وبكى صوته . ولم يقوَ على اعلان ما يودّ اعلانه . ولم تتكلم نهى . فقد عجزت عن البيان . وانتقع لون سلوى ونطق في وجهها الذعر . ماذا ترى وتسمع ؟... ما هذه الغوامض الهواصر ؟... والتفت وهيب الى سلوى يقول بلعثمة وذهول : أتعرفينها ؟.. أتكون صديقتك ؟... ولكنك لم تحدثيني عنها . لم أسمعك تتلفظين باسمها . هذه من حجبت عنك سرها ودعوتك الى مسامحتي في كتمانه . هذه اول من أحببت . وسقط اليّ انها ماتت وانا في مصر ففررت من وادي النيل لشدة حزني عليها واحتجبت في جنوبي افريقيا . ولاجلها بدلت اسمي . فلم أشأ ان اعيش باسم كنت فيه خطيباً لها . فدعوت نفسي وهيباً من آل الوردي كأني بعثت بعد اندثار ، على حين اني وسيم محجوب !

فصرخت سلوى صرخة مبّادة : آه !

وهوت الى الأرض لا حراك بها يسطو عليها الاغماء . اما نهى فدفعت عنها اضطرابها بجهد جاهد والتفتت الى وسيم هاتفة به : رفقاً بها . أخشى ان تكون قضيت عليها بتصريحك الخشن . أنت الآن خطيبها وغداً زوجها . فليس لك ان تهدم في قلبها ما بنيت !

وانحنت على سلوى تصيح : الطبيب ، الطبيب !

وتناست وسيماً ، مع كونها تعيش لاجله ، لتتوفر على انقاذ سلوى من الهلاك . فالمفاجأة هزت ثلاثة افئدة على مكين الوله كأنها قاصم الزلزال

*

– اليكِ بهذا الدواء . فعليك ان ترشفيه . ولا تتكلمي . منعك الطبيب من الكلام. لا تتلفظي بحرف . الاشارة وحدها تكفينا . فالشفاء لا ندركه الا اذا احترسنا من الاجهاد !

بمثل هذه النصائح والنواهي خاطبت نهى داغر سلوى الجندي المطروحة على سرير الألم . ولم يكن الطبيب يعتقد انها ستفيء الى الصواب والضربة ناسفة. على ان المعجزة وقعت وثابت النافضة عنها الحس الى الرشد . وتذكرت ما وقع وقد بلغ الارتجاج من العنف ما باتت به الخلجة الفاترة طامسة الانفاس . ونظرت سلوى الى وهيب والى نهى وابتسمت . الا انها ابتسامة لا لون لها . قد تكون عن ألم ونفرة ، او عن خجل واستغفار بعدما تجلى الواقع لهذه المفؤودة. خطيبها خطيب نهى. وما وهيب الوردي غير وسيم محجوب . تباً للاتفاق الممضّ !

وما التمست سلوى الجندي العثرة والقدر جرّها اليها . وهيب أقبل عفواً يسألها في نفسه وما امتدت بها اليه قدم. وكتم عنها ماضيه وكان عليه ان يجلو ضميره ، ولا خسران . اذن لوقاها

الصدمة . وابتسمت ابتسامة اخرى كشفت بها عن دخلتها. فهي على استحياء وعلى جنوح الى البذل. فما اضمحل الفداء في التوبة الجبّرة

وباتت لا تفكر في نفسها ، بل في صَديقتها . ستمحو بجنائها اساءتها الى صاحبة الفضل عليها في انعاشها وشق طريق الرخاء امامها في عالم الحديد والنحاس

وهو شأن النفوس المفطورة على الانفة والحفاظ . فتشيح عن رغدها وسعادتها اقراراً بحسن الصنيع والحياة لديها ليست متعة جسد، بل متعة روح . ليست ذهباً ، بل زهرة . فالذهب لا رائحة له ، اما الزهرة ففوّاحة العبير . وما عليها أن تعيش مدى نهار وقد ملأت الحقول والانوف بطيبها، وادت رسالة الرفق والحنان عن يد مسماح تكثر بالاستجداء . فهي واهبة . وفي الهبة نبلٌ وجلال

وعندما يقف وهيب ونهى جنباً الى جنب ازاء سلوى تغمض الفتاة عينيها كأنها تأبى أن تنغص على خطيبي الأمس صفاءهما. ويخاطبانها فلا تجيب متظاهرة بانها تغوص في رقدتها . وتتأمل نهى وهيباً ، بل وسيماً ، ويتأملها وسيم ، وتسري الرعشة في الجسدين ، ويتنهدان. شاء القدر ان يفترقا وان تقوم في سبيلهما العقبات العُنُد. واحسا بأن تحقيق الآمال بات صعباً ، بل محالاً . رحم الله الاماني العذاب !

ووقعت الزفرات في مسمع سلوى فتحرقت . لن تكون

حاجزاً يقهر المنازع في انطلاقها الى المنى العراض . واستفاقت ذات يوم على نحيب مرير. هذه نهى تتفجع على النعمى المهصورة . ووقف وسيم بقربها يستند الى الجدار وعيناه في الارض، والكآبة تجلببه جرّارة الذيل ، مرخيّة الردن . فراع سلوى ما تسمع وما ترى. وأيقنت ان الحب الهاجع استيقظ في القلبين الهائمين ، وان وجودها أمسى عبئاً ثقيلاً. وهي ما عانت الداء لولا يقينها بانها ثلمت في قلب صديقتها مناعة الحنين . فهالها ما أقدمت عليه على براءة ضمير وهانت فيها أعصابها . فدهمتها العلة تذيع ندمها وخوفها مما بدر منها وهي منه طاهرة اليد والروح. وأجمعت على ان تنصف من نفسها من أمسكت بيمينها تقودها في سبيل الرخاء والامان. وومض في نظراتها بريق غريب لم تفطن نهى الى معناه. وتكلمت بصوت خافت لا يكاد يعلو. قالت : نهى، عفوكِ عني، لم اسلبكِ اياه عمداً والقدر تولى التدبير الغاشم . ولو كنت اعلم انه خطيبك لصنت عنه نفسي. بيد انه كتم سره، والحّ عليّ في الامساك عن استطلاعه الماضي . فهو من امسه وراء حجاب صفيق . غفر له الله . جلّ ما التمس منك أن لا تنتحبي . سأجتهد في التكفير عن ذنبي . فلا تحقدي !

فصاحت بها نهى مع كل ما تكابد من سقم امل وحرقة جأش: لا تتكلمي. فالطبيب يأبى عليك الكلام . ليس لنا ان نغالب مشيئة القدر. خيرٌ لي ان يتزوجك من ان يتزوج سواك. انت

اختي . اليمين اعطت اليسار . فلا تقلقي !

وتنافستا في السماح . بنفسجة تبيح لاختها ان تستمتع دونها بقطرة الندى ولا عليها ان تقيم على ظمأ . فلا بد من حرمان نفس لاحياء نفس وليس زاد الانعاش موفوراً للجميع

وقلقت سلوى في فراشها . وودت لو تقوى على النهوض . وكانت تتلقى بشكر من خطيبها طاقات الزهر . ولكن تراءى لها منه انه يجتهد في ان يتظاهر بالصدق في حبه لها ولا يستطيع وفؤاده يخفق بسالف الولوع . والهوى الأثيل وحيد ، بل يتيم

وعادت سلوى تذكر فضل نهى عليها . وبسم لها الفداء . فلتستشهد في الوفاء ولتظهر لصديقتها انها لم تنسَ الجميل . ودخلت عليها نهى تعودها فبشّت لها ودعتها الى الجلوس قبالتها . والتفتت اليها بوجه يطفح بشراً قائلة لها : هل عفوت عني ؟

فأجابت ابنة سليم داغر تميل بسلوى الى طيّ البحث المضني : أتظلين تطرحين عليّ هذا السؤال ؟... ألا ما هي اساءتك اليّ كي تلتمسي الصفح عنها ؟

— أما سلبتك وسيماً ؟

— الاقدار شاءت ان تحرمني اياه ... لا انت !

فاعلنت سلوى الجندي بسمو جاوزت فيه مدى النبل ، كأن في كل ذرة منها روح إله معطاء ، فادٍ يجود بنفسه كي يحيي سواه : الاقدار حرمتك اياه وانا أعيده اليكِ !

فارتعشت نهى وأبت أن تفهم ما تبدي صديقتها . فكررت سلوى قولها بصدق وجهارة في الاداء : حرمتك اياه الاقدار ، اما سلوى فتعيده اليك اقراراً بفضلك عليها !

فظلت نهى حائرة تمانع في ادراك ما تسمع . قالت سلوى بمضاء : نهى ، سقط في اذني نحيبك ، وسمعتك تتنهدين وانت بجانب وسيم . اما وانا أؤثرك على نفسي فقد أبيت ان احرمك خطيبك . واعتزمت ان اكون لك الفدية . هذا محبس الخطبة أنزعه من يميني لازين به يمينك . ولست ارتضي منك عن مذهبي جنوحاً ، والا جرعت هذا السم ، وفسحت لك على جثتي الى خطيبك وانت اولى به مني !

وتناولت زجاجة المطهّر القريبة منها وهي تعلم ان فيها سماً قاتلاً . فصاحت نهى مذعورة : وسيم . وسيم !

وبدا وسيم محجوب وما انجلى له الموقف . سلوى تحمل بيمينها محبسها وبيسارها زجاجة . ونهى تبدي الرعب الصيّاح . وظهرت فيه حيرته حيال ما يلوح لعينيه وامتلكه السهو الجهول . فوثبت اليه نهى تصرخ به : سلوى خلعت عنها خطبتك وألحت في أن نعود الى ما كنا فيه ، والا جرعت السم لتجمع بيننا !

وأبت سلوى على وسيم الافاضة بنأمة وهي الموقنة انه لا يشتهي غير العودة الى نهى . قالت : ليس لي وقد تلاقيتما ان افصل بين قلبين مغرمين . فاما ان تتزوجا على مرأى مني وبرضاي ، واما

ان تبيحا لي الانتحار كي تتوفرا على الشهوة من بعدي. الدعوات موزعة على الاصدقاء . والجهاز كامل العدة. ونهى وسلوى روح واحد وقلب واحد متعادل النبضات . ولا بأس ان تحمل بطاقات الدعوة اسم سلوى الجندي وان تكون المتزوجة نهى داغر . وخيرٌ لكما ان تبصراني في عرسكما، اشاطركما الفرحة ، من ان تبكياني وقد استشهدت وتحتملا تنديد الضمير . ان لنهى فضلاً عليّ لا أنساه ما حييت !

فتولاهما البهت وران عليهما ذهول الاكبار . فهل للفداء ان يبلغ هذه المرتبة من التخلي عن بهجة الدنيا؟... وهتفت نهى: ليس لنا ان نرجع الى الماضي يا سلوى . وسيم لك !

فصاحت وكأن كل عياء جلا عنها: بل هو لك. فهاتي بنصرك كي ارصعها بهذا المحبس النفيس وهي موضعه !

وأبت ان تنثني فأخذت تقول: لن أعيش مطمئنة بين نحيبك وبرودة وسيم ، بل لن أطيق زعقات خاطري وقد أغرتُ على حقك اغتصبه فتناديني نفسي : « يا ظالمة ! » ، ويرنو اليّ زوجي باشفاق، وربما باحتقار. والزواج حب لا رأفة ، ومساواة لا زراية فيها . انقذاني من خجلي من ضميري اذا كنتما تريدان لي البقاء!

فنظر بعضهما الى بعض بارتعاش ولبكة . وشعرت سلوى بترددهما فادنت من شفتيها زجاجة المطهّر وهي تهتف : وداعاً !

فوثبا على الزجاجة ينتزعانها من يدي سلوى صائحين معاً :

رضينا ، رضينا !

فابتسمت ارتياحاً الى فوزها بالبغية . وزانت بمحبسها بنصر نهى بجزالة ريّا . وجمعت بين الحبيبين وهي تقول : الآن استراح بالي واغتبطت نفسي . الزواج بعد غد فكونا له متأهبين !

وانعقد الزواج على فخامة مظهر وسخاء حبا الى الاسراف . ولكن هذه الرافلة بثوب العرس ليست سلوى الجندي، فمن هي؟

وتصاعدت الغمغمات تستوضح وقد استشرى الفضول . وما توانت سلوى في الاعلان فاذاعت في الجمهور : نهى داغر اختي . وهي خطيبته قبلي . ابعدت بينهما الحرب وجمعهما الحب التليد وليس للمتعة الراسخة زوال !

وتمادت في البيان لا تخجل من الجهر بفضل نهى عليها . وابدت من المرح ما ايقن به الناظرون اليها انها غير نادمة على عطائها وليست تتنكر للوفاء . وعادت الى حرفتها تغرز الابرة في النسيج والعروسان يتمثلان مبرتها ويخشعان تجاه جلال السماح

وفي يوم من ايام تموز ، وقد تسلقا الجبل انتجاعاً للعافية ، أمسك وسيم بيد نهى وهما على قمة عالية من قمم ضهور الشوير ، المصيف الاخضر الاغن ، وجذب بشوق المستهام امرأته اليه والقى رأسها الى صدره وقبلها دون ان يتكلم . فأطالت اليه النظر الواله وابتسمت لطيب العناق . بيد انها ارتجفت وقد تذكرت سلوى . فرضت على صديقتها جسيم الفداء . وتفاقمت رعشتها وهي تذكر

الجدة المصابة بالخرف وقد قالت لها: « أوصيك خيراً بسلوى، ما اراك حيالها سليمة النية ! » . ألا صدقت ضائعة الهدى . فكأنها تقرأ في كتاب

وشعرت نهى بتبكيت الضمير يقرصها . وخيّل اليها انها خاطئة ، لا تمحو زلتها النار . وبكت كالمقهورة. وتمثلت سلوى الجندي تبتسم لها ابتسامة الرفق وتنفحها بقولها: « لا تنتحبي ! ». بل تراءت لها تميل عليها فتمسح عينيها بمنديل من نور، وتصبّ على جراحها البلسم قائلة لها : دعي جدتي في هذيانها ، ما تمّ وجب ان يكون !

•

فريد ابن ام فريد

أمها جالسة الى التنّور تسجّره ، فتحشوه بالبلاّن وترق العجين والعرق كالحباب يعلو جبينها الاسمر ، وهي في حقل التوت تمرط القضبان المكسوّة بالاوراق الخضر وتملأ بها السلّ لتحملها الى الخروف المربوط امام المنزل،بجانب المصطبة المتعرّشة عليها الدوالي المثقلة بالعناقيد

والخروف معدّ ليوم الذبيحة . وهو يوم مقدس في القرية تدقّ فيه أعناق النعاج السمان كأنه يوم الأضاحي .على ان هذه النعاج لا تذهب قرابين مثلها في عرفات،بل تتمتع بها البطون ، ويستقر ما فاض منها باعماق القوارير مؤونة للشتاء العربيد

وكريمة تاهت عن نفسها فيما تمرط اوراق التوت . وربما ذكرت فريداً ابن الجيران . رحل منذ ثلاثة ايام عن القرية ولم يرجع . وهو سائق سيارة ، اشقر ، أحمر ، ابيض ، يكاد يشب من وجنتيه الدم . وتماوجت تحت جبينه عينان زرقاوان فبدا كأنه من بذار غريب عن القرى والبساتين

ولفريد شاربان أشقران يتألقان في وجهه كأنهما مسبوكان من الشمع الاصفر ، دقيقان كالخيط ، ينتهيان باستدارة كقبضة العصا المعقوفة .وله قامة كالعمود يتمايل بها في زهو رفيق . ويلقي الى رأسه قبعة ملساء لا ترد عنه القيظ ولا لسعة المطر . ولكنها قبعة . وكلما غاب عن القرية جاء كريمة بهدية ان لم تكن نفيسة فهي ليست بالتافهة . فاما يحمل اليها في عودته من دمشق منديلاً

من الحرير،او علبة من الحلوى،او سلة من التفاح او الاجاص. واذا عرج على زحلة جاءها بالعنب او بالبطيخ الاصفر . ولا ينسى ان يأتيها بجوارب الحرير مرة بعد مرة وهو يجول في أسواق بيروت

وهذه الهدايا زادت في ميل كريمة بنت يوسف الاشقر الى فريد . فترقب أبداً عند منعطف القرية مجيئه . وتعرف من بعيد انه مقبل وهي تصغي الى صراخ المزمار . فيخفق قلبها وتقول فوراً : هذا هو !

ويقبل اليها ويلقي بين يديها الهدية ، فتقبلها منه بابتسامة ، وتؤدي ثمنها قبلة وضمة . اما اعلان الحب، واما الوعد بالزواج ، فهذان امران لا حاجة الى البحث فيهما وقد باتا راهنين . ولكن هذه المقصوفة العمر ام فريد تعاند وتبدي الجفاء . لا مدّ الله عمرها ولا وهب لها العافية !

أم فريد لا تريد كريمة زوجة لابنها وهي تحتقرها ولا تراها جديرة بهذ الشاب الفاتن — حرسه الله من السوء ! — وقد خلت منه حتى القصور . ومن كفريد بين أبناء الغنى والجاه ؟... اي عينين كعينيه ،واي جمال كجماله،واي قامة ممشوقة كقامته؟... انه لعطية تبخل بها السماء، فلا تجود بها في سوى اقبال الدهر

هذا رأي الام في ابنها . وليس لها ان تعقد له على ابنة يوسف الاشقر وهي تبدي هذا الاعجاب الفائق به . وما كريمة غير فتاة من بنات القرى ، تحمل المنجل وسلة العنب والتين ، وتشتغل

بحلّ الشرانق ، وتجمع الحطب من الحقل . والام تشتهي لابنها فتاة غنية ، سريّة ، ذات مقام وصيت

— ليقبر أمه ، أتحوي البلاد على سعتها الكثر من أمثاله ؟... لتقبرني عينه . فلا أشبع من النظر اليه . بنات بيروت من الكبيرة حتى الصغيرة يمتن برائحته . أأظلمه بان أزف اليه كريمة بنت يوسف الاشقر ؟... النوم تحت الحجر أفضل من ساعة أراهما فيها جنباً الى جنب ، يربطهما الزواج وتتلألأ على رأسيهما أزاهر الليمون البيض !

وكلما نظرت أم فريد الى كريمة أدارت عنها وجهها وتوهمت ان يومها يوم شؤم . فتبتهل الى الله كي يطرد عنها الشيطان الرجيم . وتراءى لكريمة ذات يوم ان تحيي ام فريد ، فنظرت اليها الام نظرة الحقد والكره كأنها تسمع من فمها الشتيمة . فخافت الفتاة وخجلت من نفسها وتابعت طريقها والالم يعض قلبها . فأي اساءة بدرت منها كي تنفر منها ام فريد هذا النفور القاسي وتكرهها الكره العنيف ؟

وام فريد ليست من طينة ارفع من طينة آل الاشقر . فالجميع من قرية واحدة ، من قرية الطيونة بجانب فرن الشباك ، على كتف بيروت . والجميع يشربون من عين واحدة ويعرف بعضهم بعضاً . فلا عبد ولا امير . زويك وعلي وعلي وزويك . هذا شهاب الدين وهذا اخوه . فلماذا التشامخ اذاً والاعجاب

بالنفس ؟

وام فريد قبل ان ينشأ ابنها ويترعرع كانت تستدرّ بقرتها وتنسلّ في الصباح الباكر الى بيروت فتبيع الحليب. تنحدر اليها شبه حافية ولا تنتعل حذاءها ، الاغبر اللون لفرط ما اجتاز من اعوام دون ان يعرف المسح ، الا وقد اضحت في كبد بيروت او في سوق فرن الشبّاك مكتفية طول الطريق بان تذيب قدميها . والسر في هاتين القدمين انهما لا تذوبان. فينقضي العمر وهما أصلب من الصخر

ومن هو زوج هذه المستورة المزهوّة كالحُبَيش ؟... رجل ربي في الحقل يحرث البستان ويتوفر على اعداد القزّ ليوم القطاف. ولم تكن ارضه له ، بل لغني جشع من أغنياء بيروت يدين المال بالربا الفاحش . المئة بعد سنة يتقاضاها مئة وخمسين . ومن لا يطمئن الى هذا الحكم المبرم فليطرح نفسه في النهر ، او في البحر . والمسافة بينهما قريبة في هاتيك النواحي والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه !

وابو فريد كان يستدين المئة ويؤديها مكرهاً مئة وخمسين . والوفاء في الموسم . موسم الحرير او موسم الزيتون. واذا خطر في باله الامتناع من الدفع بيعت غلاله وأبقاره وحصيره ومعجنه وخبزه. وأحياناً كان يعجز ابو فريد عن الدفع ، فيقبل يوسف الاشقر فيعينه، اما بتوقيع صك الدين ضامناً وكفيلاً، واما باداء

المبلغ من كيسه، على ان يفيه أبو فريد في الآتي. وجزاء المعروف كلمة شكران !

وفي اثناء الحرب الكبرى مات أبو فريد – حياتكم الباقية ! – ولم تكن ام فريد تستطيع تجهيزه . فتولى الامر عنها يوسف الاشقر نفسه. وبكى رفيقه وأخاه . فانتحب عليه وذرف الدمع الشجيّ . وانتظر من ام فريد ان تؤدي اليه ما انفق. فانقضت سنتان ولم يحتشد لديها المبلغ . فرضي منها منجدها ان تدفع مما عندها. لا بأس ببضعة ارطال من الصوف المغزول تحوكه له امرأته جوارب خشنة دافئة تقيه الزمهرير . ولا عليها ان تنسج منه لابنتها القمصان . وبقيت دفعة لم تقوَ ام فريد على وفائها فتناول يوسف الاشقر القلم وحذفها من الدفتر ، وسامح بها الارملة وابنها اليتيم

وماذا كان جزاؤه ؟

كان الجزاء ان فريداً لما شبّ عن الطوق وأمسى يافعاً أغرّ أحب ابنة يوسف الاشقر . فمانعت الام ولبطت برجلها الارض وليست ترضى بابنة يوسف الاشقر كنّة لها . يا عيب الشوم ، أيكون ابنها كالقمر حسناً وبهاء وتزفّ اليه ابنة فلاحة تمرط قضبان التوت، وتطعم الخروف، وتجمع الحطب، وتقتلع البلاّن من الارض البور ، وتخبز على التنور ؟

ابنها كالتمثال ، كهذه التماثيل اللوامع في واجهات المخازن

في بيروت وقبالتها تقف الحبالى ويتأملنها طالبات الى الله ان يرزقهن اولاداً على طرازها ، بلونها ، بقامتها ، وهندامها . وهي، ام فريد، أما وقفت حيال هذه التماثيل في سوق الطويلة، تضرع الى رب السماء ان يجود عليها بولد وجهه من ثلج ودم ، وشعره كالذهب ، وقامته كالرمح ؟

وجاد الله عليها بما التمست. ولكن هل احتملت آلام الحبل، والولادة ، والرضاعة، لترمي ابنها بفلاحين من امثاله، لا يرجحونه في الميزان حبة ؟

سيكون فريد ابن ام فريد لفتاة شريفة المنبت ، تماثله جمالاً واشرافاً . ويكون اسمها « جوزفين » ، أو « روزالين » ، او « مرغريت » ، لا كريمة ... وابنة يوسف الاشقر . فقد شبعت ام فريد من الاسماء العتاق البالية . من وردة وكريمة ونظيرة وفريدة وهندومة وياقوت ، وباتت تحن الى سماع اسماء جديدة تنطوي على الطريف المنيف

— ليقبر امه . لست اصدق انه يملك هذه الطلعة الجذابة . أيكون بهذا الجمال واعقد له على كريمة ،الفلاحة ابنة الفلاحين ؟... الموت ولا هذا الاجحاف الماحي !

وترفص ام فريد وتصفق. وتضحك ضحكة السخرية اللاذعة. لم يكن ينقصها لتتم سعادتها غير ابنة يوسف الاشقر ، هذه الحية الصفراء ، حاملة الشؤم !

ولكن فريداً لا يؤيد امه في مذهبها وقد هام بكريمة وارادها للزواج. فعرفها منذ الصغر. يوم كانا يلعبان بالاغماضة، ويجمعان الازهار، ويطاردان الفراشات، ويسرقان الحصرم والليمون، ويتراشقان بالحجارة

وأحبها يوم أخذا يدركان الخير من الشر. ويخجلان ان يراهما الناس على مبادلة قُبَل. ووعدها بالزواج وقد ايقن انه لا يطيق الانفصال عنها

وهو يكرم أمه. ويرى في مشيئتها فرضاً عليه. ولكنه يكرم نفسه ويجري في نهج قلبه. فعلى امه أن تستريح لتراف به وما ولدته لتظلمه

وتبرطم ام فريد وتتلوّن بألف لون ولون وهي تسمع من ابنها هذه الروادع. ويرتفع صوتها الخشن الجهير كصوت قائد الجيش زاعقاً: ولكني امك وقد حملتك في بطني تسعة أشهر، أفلا تكرم مشيئتي وفيها خيرك؟

فيجيب: كريمة بنت يوسف الاشقر ملك طاهر اصطفيته!

فيطول أنف الام شبراً، وتتدلى شفتاها ذراعاً، وتجحظ عيناها وتصيح بتهكم وازدراء: ملكٌ طاهر — يخزي العين! — وجهٌ كالبدر التمّ، وقامة كالخيزران، وعينان كجنح الليل، وحديث كالشهد. لتقبرها، لتقبرها وما أرى فيها غير مفزعة. إبحث عن فتاة تتفق محاسنها وطلعتك البهية. مطلبك في القصور

لا في المزابل . أراك تجهل قدر نفسك ، يا عين امك، كأنك ما تزال غريباً عن النساء ، فتشتهي رائحتهن وهن يتنائين عنك . مع كونهن يرتمين بالعشرات بين يديك في استجداء النظرة والابتسامة. لتقبر أمك. أعمتك كريمة عن كل من حولك ؟... يا ضياع شبابك فيها !

وتكاد أم فريد تتمزق . فتغمز يديها على حرقة وتصرف باسنانها وتولول كأن في منزلها مصاباً : ولدي ، ولدي ، لا تفجعني بما اعقد عليك من رجاوة. ابنة يوسف الاشقر رقعة بالية في حذائك . فمن العار ان تهواها ، بل ان تمد يدك لمصافحتها . وماذا يروقك منها ؟... أأصفرارها وهي كأوراق الخريف؟... أيداها وهما خشنتان كالمبرد ؟... أوجهها وقد ملأه الشعر كوجه الثعلب والهر ؟... أقامتها وهي طول الفتر ؟... أمنطقها وهي لكناء؟... لتقبر أمك، أراك تقتل نفسك في زواجك بهذه الجرباء !

فيوجعه مقالها ويصيح متبرماً بها : اريدها ولو كانت مسخة . انا حرّ في قلبي !

فتلطم وجهها وتقول ببأس والتياع : ليقبر أمه، هو يجهل السير في الطليعة. فيركض الى الاذيال ويشمّها . يا اولياء الله ، أما تسمعونني ، احرسوه ، صونوه . ارحموني وارحموه . هذا ابني، من لحمي ودمي ، يريد ان يتزوج فلاحة ابنة فلاّح، كريمة بنت يوسف الاشقر وليست خليقة بان تغسل سيارته ، سيارته

التي اشتريتها له بدمع القلب ونور العين، كأن لا يشوقه ان يدخن من اللفائف سوى أعقابها، ولا يستنشق من الازهار سوى ذوابلها، ارحمني يا الله !

*

وهذه المشاهد والذكريات تمايلت في خاطر كريمة وهي تمرط قضبان التوت . ام فريد تجد في ميل ابنها الى فتاة من مستواه ضربة عمياء . وزفرت كريمة بالتياع . العقبات تسد ابداً طريقها كأنها موكلة بها . على ان غياب فريد أقلقها اكثر مما أقلقتها غطرسة امه . فما حال دون مجيئه اليها ولم يعوّدها هذا الغياب الطويل ؟

وما تجرأت على محادثة الام في الحافز الى تأخره. فاذا فعلت شزرتها ام فريد بعينين كالحربتين واشاحت عنها بوجهها احتقاراً . فقد نسيت المختالة فضل يوسف الاشقر عليها وباتت تعدّ نفسها اسمى شأناً ومقاماً كأنه من الرعاع وهي من النابهين

ابنها يملك سيارة . ومن يملك سيارة أشبه برب إمارة . يطوف في البلاد وهو على مقعده كأنه على العرش . ويقبض على المقود كأن بيده الصولجان . ويقبل اليه الناس ليلتمسوا منه ان يبلغ بهم الاقاصي، اوان يأتيهم من المدن بما يحتاجون اليه . وينقدونه شاكرين ما يطلب من أجر . فتوّصيه ام سعيد، وهي

من صاحبات الوجاهة في الطيونة،بان يأتيها من دمشق بملفّ من قمر الدين ، او بنسيج من « الغبانه » لتخيطه قمبازاً للمحروس سعيد. ويطلب اليه المختار ان يبتاع له طربوشاً وقميصاً من الحرير. وترقبه الصبايا في كل منحنى ليحملهن بسيارته أنى يشاء ويبحن له منهن ما يروم . فكيف يتزوج ابنة وضيعة لا تصلح للخدمة في البيت ؟

ورددت ام فريد هذا الحديث في جميع القرية ، في مرابض القيلولة وفي الليالي الساهرة، على السطوح وعند العين. وطرقت المطاعن مسمع كريمة فاستجارت بالله من هذا الويل. وهي تستعيدها الآن وقد امتلأ سلها باوراق التوت وسدت فوهته بالقضبان الرخصة ورفعته الى كتفها تسعى الى مأواها

ولم يكن المسكن بعيداً . فهو على مقربة من التنّور الملتهب بما حشته امها من يابس الصنوبر وقد استقرّت بـه ترقّ الخبز وتضرم النار . والام كانت تفكر في ابنتها وتقول : يا سندي، أحبت ابن ام فريد ، كأن جميع اولئك الهائمين بها لا يساوون منه نظرة . ومن حقها ان تحبه . فهو جميل ، كريم ، صافي المهجة . ولكن امه كالبومة بشعة الخلق والمنظر ، وكالهرة منكرة الجميل. جميع احساننا اليها ذهب سدى كأننا طرحناه في البحر . ولولانا لماتت جوعاً وكانت تستجدي اللقمة ولا تصل اليها . على انها ما شمّت رائحة ابطها وملكت بعض المال حتى شمخت علينا واصبحنا لديها من الاوباش . يقصف عمرها كم

عاشت . وكلما تقدمت في السن ازدادت صلفاً . فأين عزرائيل يخطف روحها وينقذنا منها، أيكون اعمى عن هذه الابرة المخرومة ؟

واطلّت كريمة وسلّ التوت الى كتفها في طريقها الى البيت . فالتفتت اليها أمها وما تمالكت ان صاحت متململة : لتقبري أمك، أتقوين على هذا الحمل ؟... ألم تجدي من يساعدك عليه ؟

وسمعتها عجوز تسير على مقربة من التنور متوكئة على عصاها فصاحت بها : أتخافين عليها وهي في هذا العمر ؟... يوم كنت مثلها كنت أحمل اكداس الحطب من الحقل وأسابق دابة جدي « بو الياس » مع كل قوتها في الجري . فالشباب مسعاف فلا تخشي على كريمة من سلّ التوت وباستطاعتها ان تحمل قنطاراً ، اسم الله عليها !

فقالت الام مشفقة على ابنتها : ولكنها تقوم بجميع أعمال المنزل ومن حقها ان تعرف الراحة !

قالت العجوز وهي تقحّ وتسعل وتمخط بيديها: الراحة لمثلنا نحن الضعاف ، العجائز الهرمات ، المحلولات الاعصاب . عودي بي الى عمرها فارفع لك التنور على كتفيّ !

ودخلت التنور تجلس بجانب امرأة يوسف الاشقر . وعرفت والدة كريمة داءها فجادت عليها برغيف من الخبز موّرد الخدين كأنه زهرة الورد قائلة لها : اليك به . صلي لاجل كريمة كي

يصونها الله من البلايا . صلاتك مقبولة لدى رب السماء . اطلبي لها كي يوفقها ويفتح امامها طريق السعد !

فقرعت العجوز صدرها وقد أمسى الرغيف الساخن في حضنها يحرقها . وقالت بصوت استجمعت به قواها : ليحقق الله آمالها. ليسعفها في حاجاتها . ليقهر أعداءها . آمين يا رب ، يا عذراء ، يا يسوع !

والتفتت الى رغيف الخبز تتناوله باصابعها المعوّجة وهو يكويها. وأخذت تكدشه وتلتهمه بشره كأنها لم تذق طعاماً منذ اسبوع. قالت الام تخاطب ابنتها: كريمة، اسبقيني الى المنزل واقلي السمكات . جاءنا بها اليوم أبوك من بيروت . وبعد هنيهات من الزمن ألحق بكِ. فأعدّي الطعام ولا تنسي قنينة العرق . والدك يشوقه أن يتناول قليلاً من الخمر وهو الى أكلة شهية !

وانصرفت كريمة وافكارها تحوم على فريد . اين هو ؟... في اي بقعة من الارض ؟... هل أصابه شر؟... وارتجفت وهذا الخاطر يفجأها . هل تدهورت السيارة بفريد؟... وغمغمت على كره منها : رأفتك يا رب !

وخشيت ان يسقط سلّ التوت عنها. وبردت يداها. وانتقع لونها . ومشت الى المنزل بعينين تائهتين . أيكون فريد في نكبة ، في خطر ؟

ومرّ بها ابناء القرية فلم تشعر بهم ودخلت المنزل كالتائهة .

والقت السلّ الى الأرض وهمّت باقتحام السبل للبحث عن فريد. وأبصرت أم فريد من بعيد فركضت اليها . وعلا صدرها وهبط في ركضها . وتناست نفورها من هـذه العجوز الدميمة الوجه والقلب . واوشكت ان تدركها . غير ان ام فريد وقد لاحت لها كريمة اختفت بين سمع الارض وبصرها. وبصقت في الارض قبل أن تتوارى . والبصقة معناها الحقد والاهانـة . فجمدت كريمة في مكانها . وسرت في عروقها الرعشة . وتعاظم خفقـان قلبهـا . ووهنت قواها . وذابت نضارتها في اصفرار عليـل . واستندت الى الجدار لئلا تقع . ولكن الجـدار ما صانها عن السقوط . فهوت الى الارض غصناً قصفته الزوبعـة . وخشيت الفضيحة فجلست بلمحة مكانها . الا انها لم تقوَ عـلى النهوض . فألقت رأسها بين يديها وأصابها غشيان . أتقلق على فريد وتهينها أمه ؟... واتفق ان لم يبصر بها أحد كأن الطريق أقفر . فلم تلملم نفسها وتقف الا بعد زمن لم تقوَ على تحديد مداه . وما أوشكت أن تدخل المنزل حتى سمعت أمها تصيح بها : كريمة ، أين كنتِ ؟

والام تعود من التنور حاملة عـلى رأسها طبق الخبز . فارتعشت كريمة وتلعثمت . قالت أمها بجلع وقـد لمست مذلة الفتاة ووهلتها : ابنتي ، ما بكِ ؟

وألقت عن رأسها طبق الخـبز وهفت الى ابنتها. وتعانقت

الاثنتان بشدة . بل احتمت كريمة بأمها . بهذه الام الباسطة لها ذراعيها ترد بهما عن فلذة كبدها الأذى . وتكلمت الفتاة والدموع تسبقها في الافصاح. قالت: لقيت أمه في الطريق ... فتنحنحت وبصقت .... وآلمتني رعونتها فوقعت في الارض لا أطيق حراكاً !

فاهتز قلب الام كأن يداً تقبض عليه فتخلعه. وقالت بغيظ ولوعة : ابداً هذه المقصوفة العمر ?... ابداً هي?... أي خيلاء كانت تتقد فيها لو انها ذات أسرة نبيلة ?... ابنتي، روحي ، لا تبكي . إنسي فريداً اذا استطعت. لن يقع على فتاة من معدنك. وسوف ترين !

ولكن المهم ان تقوى كريمة على النسيان

وهو ما لم تكن تستطيع !

*

منزل يوسف الاشقر في الطيونة قديم العهد ، حقير الوجه . عشش في سقفه الدخان لتقادمه فكساه حلة سوداء اضحى بها في شبه حداد . على ان يوسف الاشقر كان يخفي المشهد الكئيب بما يبدي من رحابة وطلاقة . فاذا جاءه ضيف عرف نزيله انه رب المكان بما يوفر له يوسف الاشقر من اكرام . فيجود عليه بكل ما تتسع له يده. ولفرط حبه للناس، ومسايرته لهم، أطلق عليه

اصدقاؤه لقب «ابو معشر». ولم يغضب يوسف واللقب يلبسه. فهو دليله على الرحابة والانس

ويوسف الاشقر يحب فريداً مع كل ما يلقى من عنت الام. بل كان يضحك من هذه الام عندما يبدو له منها ان هامتها تناطح السحاب. ولماذا هذه الشدة وليس يجهل ام فريد ؟... فيعرفها من طرطورها حتى خفّها. من هي، وابنة من هي، وكيف كانت، وأين اصبحت. هوّن الله على ابنها فريد منقذها من اللبطة والحُبطة. فلولاه لكان رأسها في التراب. قال يوسف الاشقر: من حقها ان تفاخر بفريد، ولكن أتتشامخ علينا ؟

وقهقه ببرارة وسخر. ولعن في سره البنات. فما يدعو ام فريد الى مطّ خدها عليه لولا ابنته كريمة ؟... الله، الله يا دنيا، بات يوسف الاشقر ممن تسدّ عنهم ام فريد أنفها. فهل من طعنة اوجع ؟

وتنهد طويلاً. وعالج امتعاضه بكأس من العرق جرعها وتناول على أثرها قطعة من طحال أعدّته له ابنته. وتأمل الفتاة وهي تسرح أمامه وتمرح وقال: ماذا تشكو ؟... قامة لطيفة، وقسامة رضيّة، وخلق كالثريا، وأصل كريم، واخلاص، ورقة. بمَ يزيد عليها فريد ابن ام فريد ؟

وفريد ليس معروفاً في الطيّونة باسم أبيه وقد أُشير اليه باسم

امه . فريد ابن ام فريد . وهو اسم نحيل ، أكتع ، لا لون له ، غير ان فريداً نفسه لم يعترض عليه . والشاب على وداعة . فلا يلتمس من زمنه الا ان يعيش براحة ، وان يرضي كريمة . ولام شديداً أمه وهي تغمز من عرض الفتاة . ولكن أمه لم تكن تنثني . فتطيل لسانها ميلاً ، وأحياناً نجاوز به الميل . ونقذف صيت كريمة باللواذع دون تعب وكلال وقوتها في حنكها . ونساء القرية وقد عرفنها خشين طول لسانها فاتقينها . واذا تحدثن فيما بينهن عنها قلن ضاحكات : هـذا اللسان بحـاجة الى تشذيب وهو المفرط في الاندلاع والوقاحة !

على ان ام فريد لم تكن تبالي ما يقال فيها . ليتشدق الناس بما شاؤوا ، فهي تدرك من اسرار الحياة وتجاربها ما لم يعرف سواها . وثقتها الوارفة بنفسها مالت بها الى احتقار من حولها . فلم تكن تؤمن بسوى كاهن القرية الخوري منصور ، وبسوى الشيخ أسعد العائد أخيراً من أميركا مثقلاً بالمـال الوزين . فالخوري منصور شيخ قديس يرشدها الى الخير والصلاح . ويقضي أيامه في القرية وعيناه ابداً في كتاب الصلاة . هذا الكتاب الأسود الغلاف ، البالي ، وقد ورثه الخوري منصور عن أبيه الخوري أسعد ، وسيرثه عنه ابنه الخوري طوبيا . ولم يكن الخوري منصور يغوص بعينين اثنتين على كتاب الصلاة المطبوع بالكرشوني ، بل باعين اربع . بعينيه الثابتتين في وجهه وبنظارتيه البخستين الصدئتين ، وقـد

اشتراهما قبل الحرب، في عهد الدولة العثمانية، بنصف «بشلك» ليس غير واخذ يرى بهما الكون

بهذا الكاهن كانت تؤمن أم فريد وتعترف له بخطاياها. فينظر اليها من وراء نظارتيه نظرة باسمة يقول عنها من يراها من المؤمنين انها نظرة قديسة، وقد تكون غفلى. ويدعو أم فريد الى التوبة والندامة ويحلها من جميع خطاياها. وما خطايا ام فريد وهي لا تحب، ولا تعشق، ولا تسرق، ولا تشهد بالزور، ولا تقتل، ولا تشتهي مقتنى الناس؟... خطاياها انها تسب الناس. وتحقد عليهم، وتحتقرهم، وترميهم بالحمق والغرور، حتى وبالدناءة. والخوري منصور كان يقول لها: لولا هذه الخطايا لربحت السماء!

وشاقها ان تسمع منه انها جديرة بالسماء. فأحبته ووثقت به. على ان هذه الثقة ضيقة الحدود وزهو ام فريد يحول دون انبساطها. فلا تستشير كاهن القرية في شؤونها جمعاء وهي تحسن وحدها في زعمها تدبير هذه الشؤون، فلماذا ترفع أثقالها على عاتق سواها؟

أما رضاها عن الشيخ أسعد فيعود الى ثناء الشيخ عليها. فكلما رآها اسمعها انها زينة الطيّونة، وانها مثال الجدّ والكرامة في القرية. وان الله كافأ مجهودها بابن يساوي بلداً. والشيخ اسعد في ثنائه عليها يحكّ جربها. فتنتفش كالطاووس. وتغرق في انتفاشها وتغور عيناها في وجهها لفرط بهجتها. ويخيل اليها

انها سلطانة في عرش . والثناء دواؤها . ولو حاولت فيها كريمة هذا المرهم لفازت منها بفريد . ولكن ابنة يوسف الاشقر تنظر اليها كصديقة لا كسيدة . وهو ما لا تريد ام فريد، وغطرستها ، بعدما ترعرع ابنها واشترى سيارة، تدفعها حتى الى السيطرة على يوسف الاشقر ، شأن كل لئيم يميل الى اذلال من أحسن اليه

وبين منزل يوسف الاشقر ومنزل أم فريد طريق وبضع أذرع من الأرض والمنزلان يتكشّف أحدهما للآخر . فكيف تنسى كريمة فريداً وأنى ينساها فريد ونظراتهما مشتبكة أبداً ؟... عدا ان فريداً يعرف قدره فلا يعدوه ليؤمن بما تشيد له أمه من العلالي والقصور . فان زواجه بابنة يوسف الاشقر نعمة ليس له ان يكفر بها . ولكن بمَ يعالج عناد أمه الخبيثة القلب واللسان ؟

وبدا من أمه في ذلك النهار انها قلقة عليه كابنة يوسف الاشقر نفسها . فلماذا تأخر ثلاثة أيام كاملة عن العودة الى المنزل ؟... لم تعرفه يغيب طول هذا الزمن . واذا اضطر الى الغياب أطلعها على ما تقدر الضرورة . قالت بنفس هالعة : ما به لا يبدو؟

وأوجعها التفكير في مكروه أصابه . وتمتمت على رغمها وهي في بحران : ليقبر أمه . هل أصابه ، لا سمح الله ، أذى؟

ولم تعرف الراحة . فشخصت الى الحوري منصور تستطلعه رأيه في غياب فريد . قال الحوري يهب بها الى الاطمئنان

ساخراً بخشيتها : أتخافين عليه وهو سائق سيارة يجوب البلاد ليل نهار ؟... عودي الى بيتك . فريد بسلام !

فما آمنت بالقولة وعادت تستوضح : ألا ترى انه في خطر؟

فضحك الخوري منصور وقال ببلادة شاعت فيه : أما صارحتك بان لا خوف عليه ؟

ولكن أم فريد لم تطمئن . فعادت الى منزلها وهي تقول في الطريق : حبه لهذه الشريرة كريمة ويل علينا . ما شغف بها حتى فشا في المنزل الخصام. فلا أنام راضية ولا يهنأ بمثواه. اللهم، أيها القادر على انقاذ السنبلة من الشوك، ردّ عنا أبناء الحرام !

وكانت تردد هذه الكلمات لما سمعت وقع خطوات وراءها. والتفتت وابصرت كريمة تسرع اليها فبصقت ووثبت الى زقاق ضيق تتوارى فيه متطيّرة متجبّرة

ودخلت منزلها من طريق آخر . وطرق أذنها هدير سيارة فصاحت : هذا هو . ليقبر أمه !

فما تخفى عليها نغمة مزماره. وركضت لترى فريداً. فالسيارة سيارته ، ولكنه لا يقودها بنفسه والسائق غريب. فأعولت من مهجة تتصدع : أين فريد ؟

فأجاب السائق بصوت هادىء حاول به أن يدعو الام الى السكون : هو هنا ... في السيارة !

وبدا فريد في صدر المركبة ، الا انه أصفر الوجه ، رخو

الهمة ، لا يكاد يطيق الحراك . سار في رحلة الى اللاذقية فشعر على أثرها بوجع في رأسه وصدره ، واضطر الى ملازمة الفراش يومين كاملين . وخشي أن تقلق عليه أمه وكريمة فجاء بمن يسوق له المركبة ويعود به الى الطيّونة . وما شاهدته أمه في اصفرار لونه ، مطروحاً في صدر السيارة على خمود حس ، حتى علت زعقتها كهزيم الانفجار : ولدي ، ولدي !

ولم يبق منزل في الطيونة الا سمع الصوت وركض الجميع . فخُيّل اليهم ان ثمة من لفظ النفس وقضى . وكريمة بدت في الطليعة . فحدجتها أم فريد بعين ناقمة وهي تنتحب وزعقت بحقد كاسح : أما أنتِ فابتعدي . لا تقتربي من ولدي . وجهك علينا وجه نحس ولولاك لنجا فريد من الداء . فلا تقتلي ابني . ارجعي !

فكاد يغمى على كريمة لشدة خيبتها . وتراجعت وهي ترتعش . وأبصرتها أمها في موقفها العاثر ، وسمعت ما قذفتها به أم فريد من الكلام المهين ، فارتفع صوتها حانقاً مزبداً يصيح : ارجعي يا كريمة . صدقت أم فريد . فما لك ولهؤلاء القوم واختلاطنا بهم غضاضة عليهم . عودي . فمن الاهانة لهم ان نكرمهم وأن نهتم بشؤونهم !

فاختلجت أم فريد . كلمات امرأة يوسف الاشقر حطمتها ، والاتضاع يرفع . وشزرها ابنها بنظرة غضبى وقال مدمدماً

عليها : هل لك ان تصمتي ؟

فبلعت الاهانة وهي تغلي نزقاً. وشعرت بانها تحتاج الى مشيئة غلاّبة كي تقوى على امتلاك نفسها وقولة والدة كريمة مدية غمدها النحر

*

– يا حبيب أمك ، مريض؟... أتلمّ بزين الشباب العلة؟... الكون أجمع لك فداء !

وعصبت رأسها بمنديل أبيض تبدي الجزع. ولاحت للناظرين اليها بمظهرها البكيّ صخرة تنزو ألماً . وتململت كالتمساح الجريح . وفركت يديها ونظرت الى الناس بلوعة تشفّ عن رهافة النكبة

وحملت منديلاً تدفع به الذباب عن وجه وحيدها وتخاطب مرة بعد مرة فريداً بقولها : كيف انت ؟... لتقبر أمك !

وتميل ببصرها الى الناس تناوه كأنها تتصنع اللهفة . وما ندّ عن عارفيها انها تعشق الجسامة في كل ما يتولاها . الجسامة في الفرح وفي الحزن ولها الى التطرف مفرط النزوع. واجتمعت عندها القربة بأمها وأبيها ، من الشيوخ حتى الأطفال . فليس بالامر السهل ان يعود فريد من اللاذقية صريع الداء . وخلت النساء بعضهن ببعض في حجرة الشتاء يتكلمن همساً ويروين المصاب متفجعات . هل يسلم فريد من الشدة ؟... وجزعن

عليه كأنه قطعة من قلوبهن . وظهرن في جثتهن أكواماً من الهمّ لا يتحدثن بسوى الزفير والهمهمة . وتولت بعضهن إعداد القهوة والمرطبات للعوّاد. وثمة فئة تؤثر الأحزان على الافراح. ففي الأحزان يبدو اكتئابها وتحمد على مروءتها ، على حين تضيع في الأفراح كالحصاة في اللجة . وربما لا تدعى الى مجالس الانس وقد خلت من وجه باسم ، وحديث ماتع ، وما في طلعتها نضاضة من خير

وإظهار الأسى لا يخلو من ضلاعة . فليس للجميع ان يلبسوا وجوه الحرقة وينغمسوا في الكربة . على ان النساء يزحمن النساء في الشوط ، كأن الحزن أقام له تمثالاً في كل وجه من وجوههن. وانهن ليمشين منحنيات الرؤوس والجباه والاكتاف. ويسحبن أرجلهن بهمة كليلة. واذا شاهدن أتراباً لهن في الطريق خاطبنهن بالنياح ونظرن اليهن بملامح يعصرها الكمد والألم . ويدخلن منازلهنّ خاشعات مطرقات . فلا يلمسن أبناءهن ، ولا يحادثن رجالهن ، بل يكتفين بالغمغمة : مسكين ، شفاه الله ، يا ذلّ أهله اذا قهرته العلة !

ويتنهدن ويمضغن الطعام بسرعة . ويرجعن فوراً الى المنزل الملهوف ليبركن فيه كالنياق في أعطانها . ويقبضن على مناديلهن بايديهن ويمسحن بها العرق المتساقط على جباههن ، او يمنعن البعوض من لسعهن ، او يلوّحن بها عفواً لابداء المضض والكسرة

هؤلاء هن اكوام الهمّ . وينكتن أحيانا ويطول سكوتهن

كأن الغمة تخرسهن . وينظرن الى المريض نظرات يائسة تائهة . وكل ما يعرفن انهن يقمن بالمفروض. فالعادة رسمت هذا السمت فدرجن فيه ممتثلات، مجتهدات، لا يغتفرن لانفسهن الخروج عن معالمه مقدار أنملة . وتبقى جماعة منهن الى نصف الليل . وبعضهن يطلع عليهن الصباح . والمغرمات بالنارجيلة ينهدن الى تدخينها مصغيات الى كركرتها . ويعمدن الى القهوة فيرشفنها ساعة بعد ساعة قائلات : كتبت له السلامة ، شفاه الله !

وهذا ما وقع في منزل فريد ابن أم فريد . فهي مجاملات يقدرها الجوار وتدعو اليها الالفة . وليس التنكب عنها غير اساءة الى المروءة وشذوذ عن العرف . فالبشر ، وهم يعيشون جماعات، لا معدى لهم عن المشاركة في المرح والكمدة. واحتشدوا من رجال ونساء في مثوى العليل في الطيونة يرجون له الشفاء. ويوسف الاشقر في الطليعة. ففغر لام فريد عجرفتها وليس يسخو بفريد وهو عنده كولده . وتولى بنفسه اكرام العوّاد المساميح

وكريمة لم تستطع البقاء في المنزل. فانسلّت الى الحقل القريب من غرفة الشاب وجلست تحت النافذة مفتوحة الاذنين، مقهورة البال . فاذا سعل فريد سعل معه قلبها . واذا أنّ فمن صدرها تتصاعد أنّاتـه . وودت أن تراه ، ان تثب اليه من النافذة . ولكنها اذا فعلت خشيت عضات أمـه ذات الهرير . وجمعت بعضها الى بعض باصغاء وخشوع . حبيبها قريب منها بعيد عنها .

وخُيّل اليها ان أنفاسه تهب على وجهها فهمهمت : فريد ، حبيبي!

ولعنت أمه . لعنت هذه العجوز الشمطاء الواقفة بها عنه وكأنها تروم منع قلبين من الخفقان. ونادت كريمة على رغمها: فريد!

وسمع فريد الصوت فتلفت الى ما حوله يقول: أين هي؟... لست أراها!

وأنعم النظر في من تضمهم الحجرة فلم يبصر كريمة. أيحلم؟... وشاهدته أمه في ارتباكه فعوت : ماذا دهى ولدي ؟

فقال بحيرة : ولكنني أسمع ...

فأجابت متحرقة : ردّ الله عنك الاوهام يا حياة أمك !

ورسمت اشارة الصليب تخزي بها الشيطان. وقرعت صدرها. الا ان النداء تعالى مرة اخرى : فريد !

فسمعت الام وصرفت باسنانها وجمجمت : السافلة . انها لتقوق له كالدجاجة الرخوة . لعنها الله ولعن نظائرها الساقطات !

فقال فريد بصوت تهتز نبراته : أين هي ؟

وسمع حركة وراء النافذة فنادى : كريمة !

فأجابت بصوت تموج فيه الضراعة واللوعة : انا هنا ، هنا !

فوثب على النافذة والحمى تنهشه. فمنعته أمه صائحة به وهي تكاد تموت : يا ويلي ، ألا تبقيه لراحته وهو صريع الداء ؟

قال : أين كريمة ؟

فأجابت الام وكلها زفرات : سأجيئك بها . لا تتحرك من

مكانك . لتقبرني وتقبرها !

وعادت به الى سريره تبرير من كبد طفحى : ما أوفحها . أزرت بكل حياء . أيروقها أن تسلبني أياه ؟... ولكن صبراً ريثما يشفى . ألا تدري انها تقتله بهذه الوسوسة؟...لا أريدها. لست أطيق ان تدخل بيتي. ليخطفها الشيطان !

ومشت اليها تخاطبها بحنق وهي تلقي يديها الى وسطها ولهجتها تشفّ عن مستطير الكره والحقد : هل جئتِ تسرقين ابني مني؟.. أتبلغ بك قلة الحياء هـذا الانحطاط ؟... ولكنه مريض. صبراً عليه ريثما يبرأ . أيروقك الاجهاز عليه ؟ ... ما أراك أحببته الا لتقتليه !

وأمسكت بيدها تجرّها الى فريد والمقت يشيع في أساريرها، وبودها لو تقضي على هذه المنغّصة عليها بهجة روحها . وعالنت ابنها بلهجة حادة كرؤوس الحراب : هـذه هي . جئتك بها . كانت تناديك من وراء النافذة !

وشددت في الايضاح امعاناً في اذلال كريمة . فخجلت الفتاة من الحفل الناظر بامتهان اليها . الا ان رؤية فريد ذهبت ببعض الاضطراب عنها فرضيت لاجله بالفضيحة . وانتعش فريد وهو يبصرها بجانبه . وألقى يده بيدها ورنا اليها بابتسامة المفتون. فتمتمت العجائز : قصف الله عمرها . أتأتي اليه في مثل هذه الساعة ؟... أتجهل ان ليس له ، وهو المريض، أن ينزع الى اللهو والغرام ؟

وتنطحت أم طنوس، وهي عجوز في السبعين، تفاخر بكون يدها لم تلمس سوى يد زوجها. مع ان دمامتها مالت بالرجال عنها. قالت: والله، لو كنت أباها لقطعت رقبتها. لم تكن الفتيات في عهدنا يجرؤن على براح البيت. فما هذا الفحش؟... أيكون العالم في آخر زمنه؟... رحم الله الماضي، أيام كان رجالنا يدخلون منازلهم ونحن لا نتجاسر حتى على النظر اليهم. كنا نستحي. ليتني متّ في أيام الحياء، فلا تبصر عيني هذه المقابح. الى متى يبقيني ربي في عالم تسيطر عليه الخلاعة والرذيلة؟

وقالت أم نهرا، وهي عجوز عرجاء، كتعاء، عوراء: انقلبت الدنيا يا أم طنوس. تلك أيام وهذه سواها. بالامس كنا نقضي النهار لا نغسل وجهنا. وينقضي الشهر ولا تعرف قطرة الماء جسدنا. أما اليوم فلا تعيش الفتاة الا لتطلي وجهها بالمساحيق من أبيض وحمر، وتنتف ذراعيها، وتمرط حاجبيها، وتتزمل بالثوب القصير لتبدو ساقاها. والأغرب انها لا تسدل تحت الثوب ما يستر عورتها. لعن الله هذه الايام الشريرة. ما أجمل عهودنا الغابرة و كنا فيها نرتدي اللباس بزمّات حتى القدم، ونخفي صدورنا وزنودنا ووجوهنا، فلا يظهر منا سوى أيدينا!

وتأوهتا على الزمن الخالي. ونظرتا الى كريمة بامتعاض. وودتا لو ضربتاها. ولكنها ابنة يوسف الاشقر. أبوها رجل

شريف السيرة ، سخي الكفّ ، ملحوظ المكانة . وما برحت ام فريد تحدق بقسوة الى كريمة . فهي حانقة ، هائجة ، مرتجفة . وفريد نفسه لاحظ على أمه الارتجاف وتألم . على انه كظم غيظه وخاطب كريمة بقولة تنهد الى المرح : أرأيت ما أصاب فريداً ؟... كان يرجو ان يعود من اللاذقية صحيح العافية ، فحرمه الداء مشتهاه !

فقالت تؤاسيه ببيان يجبو الى الامل : وما بك وأنت الشاب السليم العزمة ؟... فالعلة دونك وانك منها بأمان !

فاصطكت أسنان أم فريد نفرة وهمّت بان ترشق كريمة بقولها الطاحن : هل لك ان تنصرفي ؟

ولكنها خشيت نقمة ابنها . فسكتت والغصص كالابر تخز قلبها . وكانت تلقي نظرة على كريمة ونظرة على الناس وتهزّ رأسها كأنها تقول : هل ابصرتم الفاجرة ؟

وشعرت كريمة بأنها أضحت سخرية العجائز المائلات الحجرة ، وان الحكمة تقدر عليها الرحيل . فقالت تعالن فريداً وعرق الخجل يبللها : سأجيء أبداً اليك . عليّ الآن أن أنصرف . أبي وأمي بانتظاري . فالحمد لله على كونك تصير الى الشفاء !

وودعته . وحيّت بأدب وخجل كل من ضمته الحجرة . وابتعدت رناظراها في الأرض . فما ردّت لها ام فريد التحية ، بل ثمة نساء وافرات امتنعن من رد التحية لابنة يوسف الاشقر . ومنهن

من رددنها بتهكم واستهزاء . ووثبت كريمة الى الباب ترجو ان تتنفس الصعداء وان تخلع عنها لهبة المذلة . ولكن أم فريد لم تفسح لها الى البغية . فلحقت بها الى المصطبة تقول باضطغان : ليس لك ان تعودي . نحن لا نرغب في قتل ابننا فداك . كفى ما بذل من وكد لسواد عينيك . فدعيه خليّ البال وابحثي لك عن فتى آخر يحبك . وان لم ترتدعي عن جنونك أبلغت أباك كي يمنعك من اجتياز هذا الطريق . فاذا أبيت كسرت رجلك . انتِ غير جديرة بابني ، وليس للعوسجة ان تستوي والوردة . فابحثي عمن هو خليق بك . هلا فهمت ؟

فتورّدت وجنتا كريمة وقد تصاعد الى وجهها كل ما في عروقها من دم . ولم تحتمل هذه المطاعن تغرز فيها كالانياب المسنونة ، فجبهت السخيمة بسخيمة مثلها وقد جهرت بغيظ : انا لا أجيء أستجدي الصدقة منك يا أم فريد . ابنك مريض فحبوت اليه أعوده ونحن جاران . وكلانا يحب الآخر . فاذا شئت ان لا أرجع اليه فلن افعل ولو كان في الأمر حياتي . ولك ان تطوي ما تبسطين لي من مأكل وأنا أبدو في منزلك . واحتفظي ليوم هنائك بما تهدين اليّ من ثياب الحرير . لا ، لن تبصري لي وجهاً . سامحيني . كنت حمقاء بظهوري في مأواكِ !

ورشقتها بكلماتها الرهاف كلسعات السوط وتوارت وهي تختلج وتجيش . فقهقهت أم فريد ضاحكة لتزيد في القهر . ولم

تنفوّه بكلمة. فالضحكة القارصة، الناخعة، ترجع المراد في اثارة حنق كريمة وايلامها. وعادت الام اللدّاغة الى المنزل تهمس في كل اذن قريبة من فمها: لا كانت نظائرها. هي تموت بفريد. ولكنها ستبصر في الظهر النجوم ولا تبصره. ستموت قبل ان تظفر بتقبيل حذائه. طردتها مرتين أبن يوسف الاشقر يمنعها من التسفل والحزي ؟... انا أعرفه نبيل الخلق، عفيف النفس. أيطرح ابنته في الطرق تعترض الشبان وتكرههم على حبها ؟... هذا ما لم نعرف في أشدّ الايام تهتكاً وفساداً. يا لخجلنا من زمن نعيش فيه !

وانتفضت كالحية الملسوعة. وما زالت احشاؤها تنطوي على سم قاتل مع كل ما تقيأت منه. وشاهدها الجميع تهتز وما خفيت عليهم حركة من حركاتها. والغريب في القرى ان للجدران آذاناً وألسنة. فتسمع وتفضي بما تسمع والثرثرة داء القرويين ولا عمل خطير الشأن لديهم يصونهم عنها، ولا أسباب للهو تميل بهم عن الطعن بعضهم على بعض، واعلان ما يرفاقهم وجيرانهم وابناء قريتهم من المساوىء والعيوب. فاذا خرجت الكلمة من فم أحدهم تنبىء بمذمة حملوها فوراً الى من قيلت فيه. وكلمات ام فريد في كريمة وقعت في الليلة نفسها في اذن يوسف الاشقر وما استطاع سامعوها ان يستبقوها حتى اليوم التالي في بطونهم. فدخلت من آذانهم وخرجت من أفواههم تنصبّ في مسمع

والد كريمة . مع ان ناقليها لم يتورعوا عن تأييد أم فريد في غمزها على الفتاة وهم أبداً مع المطرقة والسندان ، بل مع الفتنة يضرمون سعيرها باطمئنان الساعي لتعكير الالفة . وطار طائر يوسف الاشقر. أتتطاول عليه ام فريد في ابنته؟... ولم يندفع الى ذات اللسان النضناض يعاتبها وليس له أن يقرب الفاجرة وما يسف اليها ، بل انقضّ على ابنته يمسك بخناقها ويحاول ان يسلبها الحياة لو لم تركض اليها أمها تنقذها منه . وصاحت الام بهلع وزجر : ما بك ؟... هل جننت ؟... أتقتل ابنتك ؟

فزجر وصرف باسنانه فكاد يطحنها . وقال يشير الى عنقه : بلغت الروح النحر وكدت ألفظها. فلقتني ام فريد بسفالها وانتفاخها. رزقها الله ابناً لطيفاً ، واشترى هذا الابن سيارة ، فخُيّل الى العقرب انها ملكت الارض ومن عليها، وان الناس بهائم تسوقهم بعصاها . ونسيت المنكودة اصلها وماضيها . وحق السماء ، اذا داست ابنتي عتبة منزل الخبيثة ، او التفتت بعد اليوم الى فريد ، حطمت رأسها بسامير هذه النعل . لا ابنة عندنا للزواج. احراقها بالنار ولا زفافها الى ابن اللقيطة. صبرت طويلاً، ولكني انتهيت الى حيث لا ينفع الصبر. أنكون في طليعة القوم فنمسي في الذناب ؟

وانعقد عرق ازرق في ناصيته لشدة حنقه. وخافت منه امرأته على ابنتها فطوّقت كريمة بيديها الاثنتين ترد عنها الأذى. ونظرت

الى زوجها نظرة استعطاف تسأله في كريمة. قال يوسف الاشقر وهو يجيش : ليس لها أن تخاطب بعد اليوم فريداً . فلا تنتظر مني ان أزفها اليه . موتها قبل أن أراها في دار تلك الأفعى ام فريد. ما كنت أرغب في حياتي ان أرى العائلة تشمخ علينا، ولنعالنا فضل عليها وعلى ابنها في البقاء !

فما زالت امرأته تسأله في التخفيف عن نفسه . فقال وفي صوته بحة وفي قلبه غصة : لكريمة ان تختار، إما الانقطاع عن فريد وإما الالتجاء الى دير الراهبات !

فأعلنت أمها جازمة ومشفقة على ابنتها: بل ستنقطع عن فريد!

فهدد بالافناء مزبجراً وقد ضاق به الوسع: واذا لم تفعل ذبحتها وأنقذت عرضي من مقابحها !

وانتضى مدية أدناها من عيني ابنته والام تبعد الفتاة عنه. وصرخ بكريمة : بهذه المدية سأذبحك ان لم تكفري بحبك للقيط ابن اللقيطة !

فلم تجب . فدمدم عليها يقول وفي نيته ان يغمد في مكان منها النصلة الحادة تشفياً وانتقاماً ليخمد بما في نفسه بعض الحرقة: بتّ لا أطيق . لا كان الاولاد ان هم رموا آباءهم بالشين !

وظل يرتجف . واذا به يزعق والصخب مستحكم منه كأنه يأبى ان يهدأ وقد أصيب بالانفة : سأبلغ فريداً أن لا يدخل منزلنا . فلا أمل له بكريمة . كل صلة بيننا وبينه تلاشت . لا

نحن نعرفه ولا هو يعرفنا !

فتراءى للأم ان ابنتها تنتفض كمن أصابته البرداء . وشعرت كريمة بان قلبها يتحطم وهي تعرف أباها لا يرحم عندما يتصلب. فالخطبة اليبيس تستطيل في جفافها . وبكت الفتاة آمالها. وأغمضت عينيها المبللتين بالدمع وهي مطروحة بين ذراعي أمها

ولم يقوَ أبوها في تلك الليلة على النوم . فآلمه ان يسمع من امرأة كأم فريد استخفافها بابنته ، بكرامته ، بصيته. وجلس في فراشه يدخن اللفافة بعد اللفافة والزفرات تنطلق من صدره ملتهبة كالجمر ، حادّة كالأسنّة

وتذكر ام فريد وهي تبكي بين يديه وتستعطفه على ابنها. فكان يدعوها الى الركون اليه معلناً : اذا مات أبوه فانا أبوه. لن تخيبي في اتكالك عليّ !

وكم الطف بها وسخا عليها وردّ عنها فتكات الجوع . ولكنها تكشف عن معدنها. فهي لئيمة واللئيم تضيع فيه الحيلة. فالمعروف عنده جريمة ، واللين عجز ، والاكرام مقابحة . فيكافىء المبرّة بالسخيمة ،والاحسان اليه دفقة ماء في الرمل يندى بها ويستنكرها

*

ام فريد لا تزال ساهرة على ولدها . والى جانبها قطيع من العجائز عكفن على امتصاص حلمة النارجيلة وهن في تفكير ، بل في سهو وخبل ، كمن يطاف عليهم بجوزة الحشيش تعضها

أسنانهم وشفافهم ويمتصونها بجشع وعيونهم تائهة في عالم غير منظور وتعلو الغمغمات: نامي يا أم فريد. نامي كي تستبقي عافيتك. فريد بأمان!

فتبدي القلق والنزق وتقول: كيف أنام؟... ليقبر امه. أيشكو الداء وينتفض تحت وطأة الحمى وأنا ارقد بهناء؟... ليتها نومة البلى. ولدي، وددت لو سطا عليّ الداء وأنقذتك من حمّى تشويك. أتتوجع وعينا امك تغمضان؟

وتتنهد من أعماق قلبها وتردد بجزع: ولدي، ولدي!

وتفرك يديها وتمضي في تجسيم لوعتها. فليس في الكون مصاب يضارع نكبتها. وتمطّى الصباح وتثاءب وعين ام فريد لم تنعقد أهدابها. وسمعت بالباب دقاً. من المقبل في بسمة الضحى؟... وفتحت واذا بامرأة يوسف الاشقر تطلّ. خيرٌ ان شاء الله. على ان وجه والدة كريمة لم يكن يدل على الخير. فهو فاحم كقلب أم فريد، قاسٍ كروحها. وتبادلت المرأتان التحية بجفاء كأن العداوة كشفت عن سترها. وتكلمت امرأة يوسف الاشقر فقالت: كيف حال فريد؟... أرجو أن يكون تعافى!

فنبرت أمه بصوت نضا عنه الايناس: الشكر لرب السماء. ادخلي!

– ما جئت للدخول، بل لابلاغك ان زوجي وقف على مطاعنك. وهو يعالنك بانها تعود عليك بالوبال. فاذكري فضلنا عليكِ. وقد اعتزم يوسف ان يبخل بكريمة على فريد. فلن يجيز لها

ان تلتفت الى ابنكِ ،ولا ان تعرّج على منزلك. فاطلعي فريداً على ما أنقل اليكِ . لا نصيب له منا !

وأدارت لها ظهرها لا تنتظر جواباً . فهال هذا الامتهان ام فريد وفوجئت بالخرس وهي الفياضة الثرثرة . ضعضعتها الصدمة المباغتة. ونظرت بعينين سادهما الحمق الى امرأة يوسف الاشقر تنصرف عنها وكادت تنشقّ . على انها غالبت نفسها واستطاعت ان تدير لسانها في حلقها قبل ان تتوارى والدة كريمة فصاحت بعوا. الذئب الجريح : ابني لي وابنتكم لكم. نحن بغنى عنها . انقعوها بالخلّ لئلا تتهرأ، او سدّوا بها باب القنّ. ابني لا يغوص على هذه السقاطة !

فسمعت امرأة يوسف الاشقر عواء وزمجرة ينبعثان من حنجرة ام فريد ،غير انها لم تفهم ما تجعجع العجوز الحقود. وقد تكون تظاهرت بانها لم تفهم. ومثلت بين يدي زوجها تقول بارتياح: أبلغتها ما تروم مني مصارحتها به . فهل لك ان ترقد بسلام ؟

وكان ما يبرح يدخن اللفافة تلو اللفافة وينفخ الدخان بزفير وفحيح . فهو يشتعل . قال : وماذا كان منها ؟

— جمدت كالحائط . وهل تجهل نفسها ؟

— أما زعقت وتباهت ؟

— على من تزعق وبمَ تتباهى ؟... أيخيل اليك ان الناس ضاعوا عن مراتبهم ؟

فسرّه ان يكون قهر السابحة في زهوها واستوضح وقد اشتفى : وأين كريمة ؟

– في فراشها !

– أتنام ؟

– بملء عينيها !

– حسن . هاتي الركوة والطباخ . أريد ان أغلي بنفسي القهوة على النار !

وفيما يغلي القهوة كانت أم فريد تتفجر شتائم ولعنات وقد استعادت سيطرتها على أعصابها : تلك الناقصة !... أتقبل اليّ لتبلغني انها لن تزف ابنتها الى فريد؟... ومتى طلب فريد ابنتها للزواج ؟... كان يلهو بها ويضحك منها. عشقته واستماتت بحبه، اما هو فما اكترث لها بمقدار اكتراثه لقطرة من الزيت تراق هدراً. فلتبحث امرأة يوسف الاشقر عن سيرة ابنتها قبل ان تأتي اليّ لمجاهرتي بكونها لا تعقد على كريمة لفريد. ليقبر أمه، أليس من الظلم أن يقف نفسه على هذه الجيفة المتلثة صديداً ؟

وقهقهت ام فريد قهقهة ماج فيها الغيظ والقهر. امرأة يوسف الاشقر جاءت تبلغها انها لا تريد فريداً لكريمة. يا للقدر الهازل!... متى كان الغراب ينعى على البلبل تغريده ؟... وأحست ام فريد بانها شعلة من نار. وأخذت تمسح بيدها العرق المتنفس في جبينها وصدغيها وعنقها وكلها على احتدام

وتضايقت وكادت تعلن ابنها الخبر . فقالت وأسنانها تصطك: ألم تنتظر امرأة يوسف الاشقر لاذاعة مشيئتها فينا ان تشرق الشمس وتتعارف الوجوه؟... أتأتي اليّ في انبثاق الفجر وصياح الديك لتطعنني في قلبي؟... كسرت يدها وشلّ لسانها. لست أدري ما يكون من فريد وقد اتصل به الخبر. على انه اذا عاد الى التفكير في تلك الفاسقة دعوته الى الامتناع من دخول البيت. فالمنزل لي وحدي. ليس له حجر واحد منه ما دمت مفتوحة العينين !

ولم تهدأ. فالغيظ ملك جنانها. وكانت تنظر الى ابنها نظرات قاسية تقول بجلاء: لولاك لنجوت من كلمات الاهانة اسمعها من أحقر الناس !

ومالت عليها العجائز قائلات : لا تغضبي يا ام فريد. الخلاف بين الاصدقاء ورم . مهما تعاظم فلا بدّ ان ينفشّ . انتِ وبيت الاشقر أشبه بالأسرة الواحدة . فاتقوا معاتبة بعضكم بعضاً. الكلام في ساعة الغضب شفرة ذات حدين . لفظة حنق واحدة تهدم جبلاً !

والعجائز يدرجن في احاديثهن على الامثال . فالايام علمتهن الحكمة . على ان ام فريد لم تقوَ على كظم غيظها . فمضت في الغمز واللمز والسباب . وألحفت في ترديد اسم كريمة بالمذمة . وكأن الاسم لقي في جنان فريد صدى، فاستفاق الشاب وهو ينظر الى ما حوله باحثاً عن ابنة يوسف الاشقر . فدنت منه أمه تستوضحه

بحنان مكدود يفشو فيه القلق : ما بك يا عين أمك ؟

فجمجم : سمعتك تتلفظين باسم كريمة ، فأين هي ؟

فتصاعدت الانفاس محترقة من صدر ام فريد وقالت بلهجة ملتاعة كسيرة : أتهتم بالناس ونحن بحاجة الى الاهتمام بانفسنا ؟

فاستفهم بصوت جازم : أين كريمة ؟

— في منزلها يا روح أمك !

— ناديها اليّ !

فسرت في مفاصلها القشعريرة . على مَ يريدها ابنها ؟... أيحطم فيها شموخها ويذلّ جبينها ؟... وعزّ عليها التماس رحمة من رذلوها . ليت كان فريد على يقظة وسمع قولة والدة كريمة الصافعة . وتبين فيها ابنها الاحجام فنبر آمراً : ناديها اليّ !

فخافت أن تتلفظ بالشتيمة . وهالها أن تؤلم ابنها فارتبكت وتحرقت . فاحمرّ وجه فريد وازرقّ وتحفز الفتى للنهوض صائحاً بغيظ : هلا ناديتها ؟

فجمدت حياله تمثالاً أشلّ أبكم . فهو لم يقف على ما تفوّهت به امرأة يوسف الاشقر من تبكيت ومهانة . فصاح فريد وقد تبرّم بما يلوح له في أمه من سعي كابح ترضّ به ميوله : ما دمت تأبين ان تأتي بها اليّ فاني لمنطلق اليها !

وحاول الوثوب من سريره . فلم يكن من الام الا ان ولولت برعب : يا ذلي ، ابني ، اي جنون يعتريك ؟

وتضرعت اليه ان لا يبرح السرير . فانه ليكسر قلبها إن تبدر منه البادرة المحصور . قال : اذن ناديها !

فتولاها الذعر . أتطلعه على ما طلبت منها امرأة يوسف الاشقر ابلاغه اياه ؟... ولكنه يجنّ . فتشتد به الحمى وتسوء العقبى. فصاح : ألا يروقك ان تناديها ؟... أيبهجك الامعان في تحطيم قلبي ؟

وكاد يمزق قميصه لفرط حدته . فهتفت الام وقد زالت عنها نفختها حيال صلابة ابنها وحاذرت ان تودي به وهي أمه: ولدي، سأناديها . لا تقلق . سأجيئك بها !

وما انفكت تتحامى ان تعالنه ان ابا كريمة منع ابنته من المجيء ، وانه يسدّ بابه على فريد . فليس للشاب بعد اليوم ان يخاطب كريمة او يراها. هذه نصال تفري مهجته وتصونه امه عنها. وقتلت ام فريد فيها غطرستها وهي تجمجم مغلوبة على امرها : الاولاد ، الاولاد !... آه من الاولاد !... انهم ليحطمون أرفع رأس، ويكرهون الاباء والامهات على الزحف على البطون مهما سموا وعزوا !

وزحفت الى منزل يوسف الاشقر بجبين يتمرغ في التراب ونفس ميتة . ابنها طحنها . سامح الله ابنها . وظهر منها انها أشبه بالمستجدية الخجول. فتقدم رجلا وتؤخر رجلا كأنها تبسط يدها للسؤال . ووقفت بالباب لا تتجرأ على الدخول. ومضت

في عينيها خيلاؤها المصروعة فتراجعت وهي تتمتم بصوت جارح كالشفرة الباترة : لا ، لا !

وعاد زهوها فانتعش فيها . كيف تهون فتلتمس رفق من أشاحوا عنها؟... وغالبت عجرفتها امومتها . ولكنها تمثلت ابنها في دائه يوشك ان يموت فما احتملت عبء المصيبة . وهتفت على رغمها بصوت كالمواء : كريمة ، كريمة !

وودت ألا تسمع جواباً . بل ودت ألا يسمعها يوسف الاشقر وامرأته وابنته . فتقضي مهمة ابنها ولا تنزل من عليائها . ولم ترتفع نأمة كأن المنزل يخلو من ساكنيه . مع ان الباب شبه مفتوح وقد انفرج عن بعض الشقة . فاعادت النداء بصوت أشبه بالهمس انصافاً لضميرها . وتريثت هنيهة وقفلت الى ابنها ونفسها على بهجة . فما في الدار ديّار . وأقبلت الى فريد على فائق المسرة وقد سلمت كرامتها من الاسفاف . قالت بارتياح تجلببت به كلماتها : ليست في البيت يا سندي !

فهزّه بيانها . ألا تكون ابنة يوسف الاشقر في مأواها؟... أين هي إذن؟... وشخص له ان امه تخدعه . وفار فائره وصرخ : أتأبين مناداتها اليّ ؟... لعن الله غطرستك كم أوجعت روحي . ففي اي سماء انت كي تدري هؤلاء السراة ؟... هل جحدتِ أياديهم علينا وما تزال عوارفهم تروينا ؟

ونهض يطفر الى مسكن يوسف الاشقر . فصاحت أمه

مستعطفة : ولدي، ولدي، اشفق على نفسك. فما في البيت روح. ادفع عن جبينك وصمة الاحتقار . يوسف الاشقر اوفد اليّ في الصباح امرأته لابلاغك ضرورة الانقطاع عنه !

فكأنها لكزته بالمهماز . ما يدعو يوسف الاشقر الى هذا المنع ؟... ونتأت عينا فريد . وطار الى منزل يوسف الاشقر والحمى تستعر في دمه وفي عروقه . وبدا كالفارّ من مستشفى المجانين . لا جورب، ولا حذاء ، ولا طربوش ، ولا معطف . فما يرتدي غير قميص ابيض طويل هو غلالته . ودفع الباب ودخل يصيح باعلى صوته : كريمة ، كريمة !

فما سقطت اليه نأمة وقد خلا المكان من الانس. فجال في الغرف جمعاء وهو لا ينفك ينادي كريمة. ولكن لا جواب . فالدار مفتوحة الابواب ومقفرة كالصحراء . فأين أربابها ؟

وشمّ رائحة المصاب. اي صاعقة انقضت على الاسرة الوادعة؟... واندفع في أزقّة الطيونة بشكله الغريب المخيف. بشعره المنبوش وملامحه التائهة وقدميه الحافيتين . كان يعدو كالارنب وهو لا يدري ما يحمله على العدو. ونسي انه حاسر ، حافٍ ، شبه عريان. واجتاز الطرق كالسيل الجارف لا يلتفت الى الوراء . وتناديه امه باسترحام ، بتواح ، بذل : ولدي ، ولدي ، حشاشتي ، لتقبرني !

فلا يسمع أمه . وغرزت الاشواك والحصى النائتة في قدميه

وهو مندفع كالقذيفة . وما برحت أمه تناديه معولة منتحبة . وسمعها ابنـاء القرية . وخرجت العجائز من مثواه يولولن : ولدي ، ولدي !

وقلن باجمعهن انه مجنون . وصحن بمن أبصرن من الرجال: اقبضوا عليه ، اقبضوا عليه !

ومن يجرؤ على القبض عليه وهو في صخبه وهياجه شرارة محرقة . وكان يصيح بأعلى صوته مستوضحاً كل من يبصره : أين كريمة ؟

وجاب البساتين وليس من يضارعه في الوثبة . ولقي أحد الرعاة يسرح بغنمه في المشارف المطلة على نهر بيروت فاستوقفه زاعقاً وهو يلهث : هل أبصرت كريمة ؟... هل أبصرت أباها وأمها !

فخاف الراعي من مظهر الفتى الأخبل وأجاب بصوت متقطع: هي ... لم ابصرها . اما ابوها وامها فلاحا منذ عشرين دقيقة لعيني يركضان الى الوادي . . . وشئت مخاطبتهما فما التفتا اليّ !

فقفز فريد قفزاً جموحاً الى ضفاف النهر يشقّ اليها الحقول والكروم . ولحق به نفرٌ من أبناء القرية وقع في مسامعهم ان كريمة فرّت ليلاً من المنزل مقتحمة البراري ، وان احد بني قومها أبصرها في وادي نهر بيروت تسير على غير هدى. ولما حاول

امساكها والرجوع بها الى أهلها صاحت به : دعني ، دعني . حسبك ان تبلغ أبي وامي اني اخترت مقري !

ولكن ام فريد لم تؤمن بكون ابنة يوسف الاشقر هفت من تلقاء نفسها الى الضفاف . قالت وهي تجري في أثر ابنها وتبغي ردعه عن المجازفة ولا تستطيع: دبروا هذه الحيلة ليعجّلوا في ان يعقدوا لابني عليها . يا للمنافقين !... انقذني اللهم من المجبولين على الختل والغدر !

وكلما ركض ابنها ركضت . وأنى سار سارت كأنها في همة البزاة . وما انفك صوتها المتأوه يعلو : امسكوه . انقذوه . ادفعوا عنه الويل !

وتلاشت في انحدارها الى الوادي. فسقطت الى صخرة ملساء وهي تشعر بوخزات أليمة في خاصرتها كأن قلبها الشديد الخفقان يشق منفذاً للفرار . وبدا لها ابنها في اندفاعه العجيب ملتوي الهدى . وراعها أمره وهتف بها هاتف يقول: «ابكي على فريد يا أم فريد!». فوثبت من مكانها بمضاء وافتفت خطو ابنها وصراخها يقلق الروائس والضفاف : امسكوه ، امسكوه !

ولكن فريداً ما برح شرارة طائرة. وسال الدم من رجليه، وتدفق الزبد من شفتيه ، وهو يمعن في عدوه بعزيمة لا تفلّ . وأدرك والدَيْ كريمة يبحثان عن ابنتهما في المغاور والكهوف والزوايا والمنعطفات والسواقي والغدران . فصاح بهما: ولكنها في

النهر ، في النهر !

وانقض على فناطر زبيدة كالنسر الهاوي على فريسته . وهي فناطر ترجع الى عهد غير كانت تجرّ فيه الماء الى سواحل بيروت . وما تزال منتصبة كالجبابرة ، ولكنها جبابرة صرعها الجهاد . فالايام أخنت عليها وقوّضت كبدها فبات بعضها منفصلاً عن بعض ، كالايدي الممدودة للمصافحة وقد وقفت بينهـــا النميمة تسدّ عليها الطريق

الى هذه القناطر العاقدة بين جبلين هفا فريد ابن ام فريد . وبحث عن شيء يعرف انه هناك ، بين تلك الخرائب . ربما كان يبحث عن كنز دفين أخفاه بيده في أحشاء الوادي . واذا بـه يقف عند منفصل القناطر وفمائه يتعاظم ، ومن جبينه يتصبب العرق على دفق . وتشنجت أعصابه . وانتفخ منخراه فبات يتنفس منهما بشدة . وخفق قلبه في صدره يضرب ضربات المطرقة . وانتصب شعر رأسه . وقبض على هذا الشعر بيديه يحاول نتفه . فقد أبصرها هنا ، هنا ، كتلة من لحم ودم وقـد اختلط بعضها ببعض اشلاء مهشمة لا يزال النجيع يصفي منها . ولولا وجهها المصاب بخدوش قلائل ، كأن الصخور ضنت بجماله ان يشوّه ، لتنكرت عليه . ولم يبقَ لديه ريب بانها هي ، هي كريمة بنت يوسف الاشقر ، حبيبته ، أمله في الحياة . قال وكل مـا فيه من شعور يندلع منه : أنجزت ما هددت به . أبلغتني انها ستنتحر في فناطر «الست»

زبيدة ان هي اخفقت في حبها لي ،وما ترددت في الانتحار ، واحسرتاه !

ولم يشأ الوقوف طويلا ازاء الكومة الدامية المختلطة اليدين والرجلين ،الغارقة فيها الساق في الامعاء، الضائعة الكتفين، المطحونة العظام . لم يشأ النظر ملياً الى المشهد الراعب المبدد الرجاوة ، الهادم العزمة ، بل سقط حيث سقطت كريمة لا يبالي صيحات : « مكانك . ارحم شبابك ! » . واشتبكت أشلاؤه باشلاء من ودعت في سبيله الحياة . وضاعا معاً في كتلة واحدة، حمراء، مجهولة الرأس والعقب ، ترمز الى عبث المودة بالفناء

وهوى ثلاثة في الأرض كأطواد عصف بها الزلزال. يوسف الاشقر، وامرأته، وأم فريد. ولم يعجز يوسف الاشقر وامرأته عن النهوض والزحف الى النهر ، محدودبين ، ساهين ، قتيلين على كونهما في قيد الحياة . وأم فريد نهضت ، الا انها كانت تركض ركض الهوس كأبنها في اندفاعه الى قناطر « الست » زبيدة . وما ألقت بنفسها عن القناطر كأنها ما تزال تبخل بروحها ، بل حبت الى الكدسة الحمراء تقطع كبد النهر الغزر الماء وهي تقهقه ضاحكة. وارتمت على الاشلاء تغوص فيها وتلغ في الدم فتملأ به فمها . امتصت دم قلب فريد وهو حي يرزق بمنعها اياه عن كريمة ، وها هي ذي تمتص دمه وقد مات بجانب كريمة وجمع بينهما وصال حالت دونه في يقظة الارواح

X3
12

ولم ترجع أم فريد الى منزلها ، بل أقامت في وادي نهر بيروت ، بجانب قناطر « الست » زبيدة ، تطوف في الوادي صارخة : فريد ، فريد !

فما تنفك تناديه كي يرجع اليها . وتعوي في الليل كالذئاب الجائعة . فهي مجنونة . ولم تبرح ، مع جنونها ، معتصمة بغطرستها . فتأبى على الوادي سالب ابنها ان يتمتع براحة حرمها اياها وتقلق سكونه بزعقاتها المتوالية ، الجامحة ، كأن عبراتها المحبوسة تنبجس من حنجرتها عواصف من دمدمات ورعود !

•

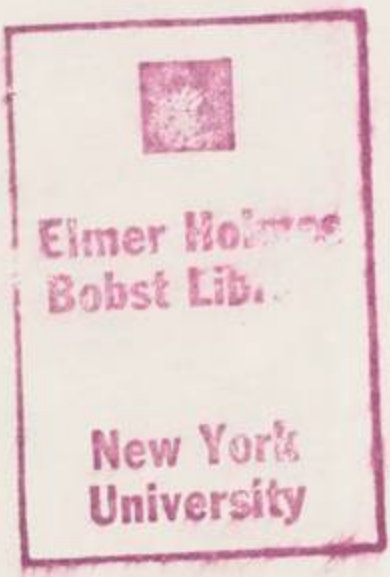
Elmer Holmes
Bobst Lib.
New York
University

NYU - BOBST
31142 03166 0163
PJ7842.A68 A9 1951
Ashba´¿ al